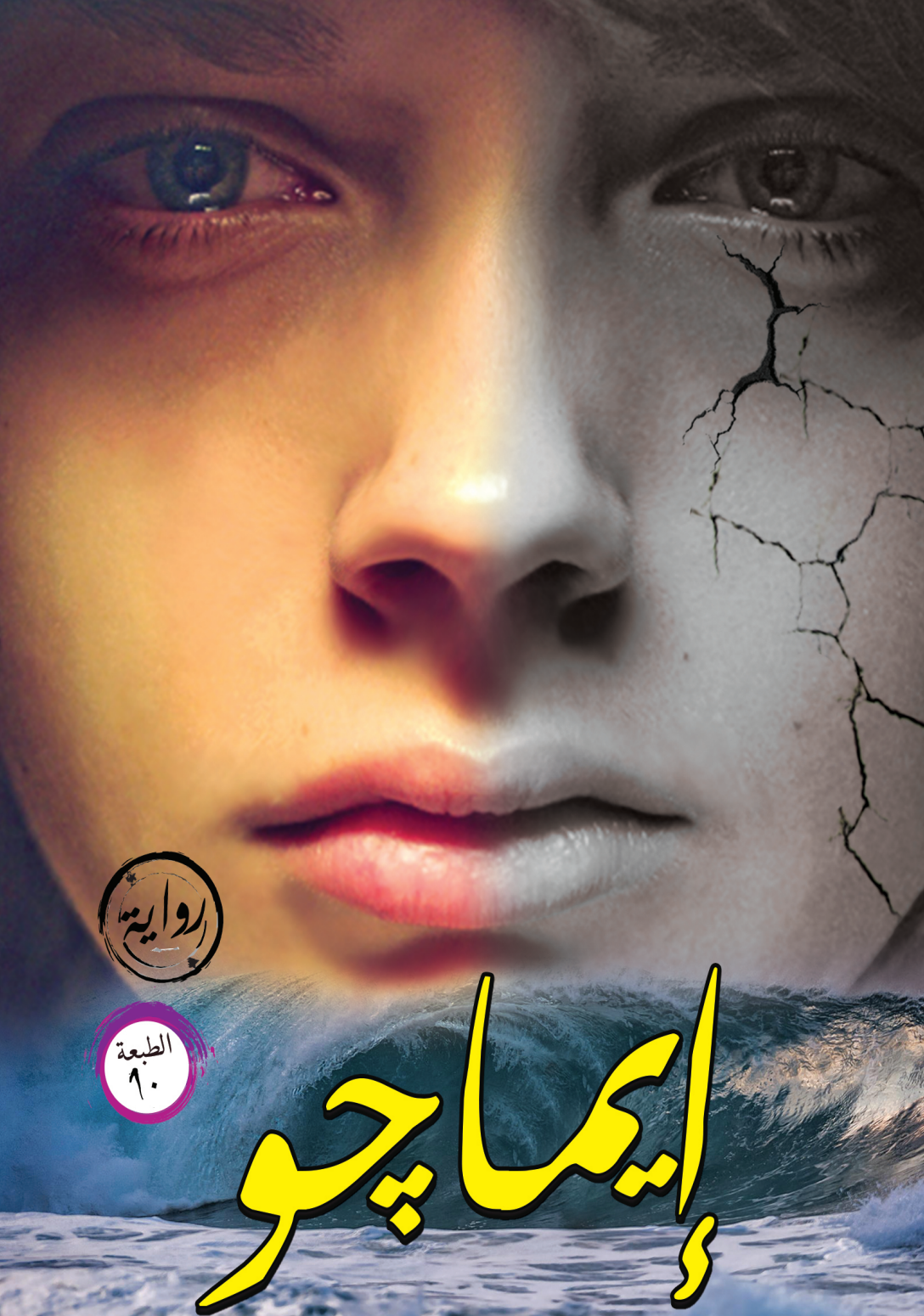
رواية
الطبعة
٩٠
إيماچو

ربيع الكتب
book-spring.blogspot.com
facebook.com/spring.book.eg

إيماچو

إيمـــاجـــو

رواية

دعاء عبد الرحمن

"الآن يتساوى القوي والجبان"

أول جملة قالها صامويل كولت

بعد اختراعه المسدس

إِهْدَاءْ

إِلَىَ قُبْلَةِ الصبَاَحِ وَرِيحِ الْجَنَّة إِلَىَ نَبْعِ عَطَاءٍ غَاَبَ تَحْتَ الْثَرَى
إِلَىَ أُمِي الْغَاَلِيَّة- رَحِمَهَاَ الله-

إِلَىَ نَبْضِ قَلْبِي وَ وِشَاحِ رُوُحِي.. غُرْبَتِي وَ وَطَنِي إِلَىَ زَوْجِيِ الْحَبِيبْ

شُكرٌ وَ تَقْدِير

لِكُلِ مَنْ سَاَعَدنِي وَتَبَنَّى قَلَمِي وَقَوَّمَهُ وَحَسَّنَهُ وَبَذَلَ وَقْتَهُ وَجُهْدَهُ لِتَخْرُجَ كَلِمَاَتِي إِلَى الْنُور بِشَكْلٍ لَاَئِقٍ وَهُم كُثُر

وَأَخُصُ بِالْذِكْرِ

دَارَ"عَصِير الْكُتُبِ" وَالْقَاَئِمِينَ عَلَيهَا
الْكَاَتِب الَرَاَئِع د. أَحْمَد السَعِيد مُرَاد

- 1 -

ارتفعت النداءات عبر مكبرات الصوت المركزية، لا تتوقف لحظة واحدة، في كل ممر من ممرات المشفى الكبير بالبحر الأحمر، باستدعاء جميع الأطقم الطبية وأطقم التمريض الموجودة في ذلك الوقت المتأخر من الليل. وكذلك انطلقت اتصالات الـ "سويتش" لاستدعاء كافة الأطباء العاملين من مساكنهم. إنها حالة طوارئ عاجلة وغير متوقعة؛باخرة كبيرة غرقت في عرض البحر، وزوارق الإنقاذ تكافح بشدة لانتشال الأعداد الكبيرة التي سقطت في المياه؛ وبسبب الإهمال وتأخرهم، ظلت الصراخات المستغيثة تشق الفضاء لساعات طويلة من الليل، الجميع يتخبط محاولًا إنقاذ نفسه من الهلاك، بينما بعضهم غمرتهم المياه ولم يظهر لهم أي أثر، جرفهم التيار أو علِقوا بالشعب المرجانية أو هلكوا بطريقة أخرى!.

هرولت الممرضات عبر الرواق الكبير الذي يفصل قاعة الاستقبال الأمامية عن الجزء الداخلي من المشفى المؤدي للمصعد، وهن يدفعن أمامهن الأسِرَّة والمقاعد المتحركة، التي امتلأت عن آخرها بحالات حرجة، منها من هو بين الحياة والموت، ومنها من أصيبت بصدمة عصبية شديدة، ومنها من فارقوا الحياة بالفعل.

تداخلت الأصوات، وعلت التشنجات الباكية، وبعد ليلة طويلة ملأتها الأحزان والآلام والخوف،حتى بزوغ أشعة يوم جديد، ومعه بدأ السكون يحل قليلًا، إلا من بعض أناتِ الجرحى والمصابين، الذين ازدحمت بهم غرف المشفى، منهم من يتلقى إسعافات أولية، ومنهم من قضى ساعة أو ساعات في غرفة الجراحة، ومنهم من سكن مشرحة الموتى.

وعندما توسطت الشمس كبد السماء، عادت حالة الهرج مرة أخرى، بحضور أهالي الغرقى الذين يبحثون عن ذويهم في لهفة وقلق، لا يعلمون هل أحبتهم على قيد الحياة أم يرقدون الآن في قاع البحر، أم انزلقوا بداخل كهوف مظلمة في أعماق المياه الباردة. وكلما مالت الشمس إلى الغروب،ازدادت أعداد الباحثين، وارتفعت أصوات البكاء والعويل من حناجر الثكلى، وزادت حدة القلق والتوتر عندهم.

وقبيل الفجر بقليل، وفي نهاية تلك الملحمة بعد يوم شاق، دلفت إحدى الممرضات إلى الاستراحة الخاصة بهن، وقد سكنت الجدران ولم يسكن من خلفها.ارتمت فوق المقعد منهكة القوى مغمضة العينين قائلة بوهن:

- بقالي يومين واقفة على رجلي، خلاص مش قادرة.

رفعت ممرضة أخرى رأسها، التي كانت تستند بها إلى راحتها وقد دمعت عيناها وهي تقول:

- ماحدش فينا ارتاح من ساعة ما السفينة دي غرقت، بس تعرفي، أهاليهم صعبانين عليا أوي خصوصًا اللي مش لاقيين ولادهم.

أومأت الممرضة الأولى برأسها بإنهاك شديد قائلة:

- معاكي حق، لسه دلوقتي كنت بدوّر على بنت مع أهلها وخطيبها وللأسف مالقيناهاش، حالتهم صعبة قوي وخصوصًا خطيبها اللي لقى أبوه وأمه وأخوه

الصغير في التلاجة، كان هيتجنن ياعيني، حالته تصعب على الكافر، أهله كلهم راحو وكمان مش لاقي خطيبته ولا يعرف هي عايشة ولا ميتة ؟

اعتدلت الأخرى باهتمام وفضول قائلة:

- طب مافيش معاهم صورة ليها؟ يمكن اسمها ماتسجلش في الحالات اللي دخلت، والأوض مليانة، ده كل أوضة فيها خمس أو ست حالات

أومأت برأسها مؤكدة وهي تخرج صورة صغيرة وهي تقول:

- أخوها اداني صورتها لما سبتهم وطلعت أدور في قسم تاني

أمسكت الممرضة الأخرى بالصورة بفضول، ثم دققت بها النظر وتمتمت بتركيز:

- البنت دي تقريبًا خرجت الصبح مع أبوها، فاكراها من حالتها، كانت صعبة أوي ومش فاكره حاجة خالص

قطبت زميلتها حاجبيها وهي تقول بتفكير:

- ما يمكن واحده شبهها

حركت الأخرى رأسها بعدم تصديق قائلة:

- معقولة!! شبهها للدرجة دي!.. دي تبقى صدفة غريبة أوي

زفرت زميلتها بإرهاق وهي تغمض عينيها ملقية بجسدها فوق الفراش الصغير قائلة بضجر:

- بقولك إيه فاضل كام ساعة والنبطشية تبدأ سيبيني بقى أنام شوية، يخلق من الشبه أربعين!!

****

انطلقت بعنفوان وتحدٍ، بمقدمتها الضخمة المبتلة تشقه شقًا، وتطفو فوقه بخفة ورشاقة لا تتناسب مع ضخامتها، فهي المخضرمة في مجالها تختال بهيبتها وقدرتها وسرعتها. حاول أن يتحداها كما يفعل دائمًا، ولكن –كالعادة- لم يستطع ثنيها، أمام عزيمتها وتصميمها على المضي قدمًا في طريقها المنشود، واضطر في النهاية، رغم برودته وعتمته، إلى الاستسلام وإفساح الطريق أمامها. فازت عليه كما تفعل دومًا، وانطلقت سابحة في قوة ورزانة وهدوء، يتناسب مع اسمها الذي أُطلق عليها "السهم". ورغم سرعتها، إلا أنها رفقت بمن تحملهم فوق ظهرها يحتفلون على متنها.

تعالت أصواتهم وهم يرقصون بصخب، وصوت آلة الجيتار يدوي بألحانه العاشقة، وهو يعزف بأصابعه المتدربة مغمضًا عينيه في نشوة، متذوقًا كلماته التي كتبها وغناها لها وحدها، في يوم ميلادها والذي كان يتوافق في تاريخه مع ثاني أيام عيد الفطر. كانت تتمايل برأسها يمنة ويسرة، برقة ممزوجة بالخجل، وتُخلل أصابعها محاولة ترتيب خصلات شعرها الفاحم الطويل، الذي عبث النسيم بغرته القصيرة مداعبًا عينيها السوداوين، وهي تجلس بجواره بثوبها القرمزي الطويل مكشوف الذراعين، وقد تحلق حولهما الفتيات والشباب يصفقون ويتمايلون على وقع أنغامه،التي امتزجت بهدير أمواج النيل الهادئة، والذي انعكست على صفحته مصابيح السفينة القوية، كاشفة أمامها تلك المراكب الشراعية الصغيرة التي تسبح بهدوء في الجوار، وقد وقف من فيها فضولًا يراقبون هذا الحفل الصاخب، الملون بأزياء مبهرجة تلمع خطوطها وتُحمل بين أطراف الأصابع ذيولها.

وبالقرب من الأسوار،اصطف رجال الأعمال المدعوون بشكل عشوائي بملابسهم الرسمية الملائمة لتلك المناسبات الليلية، وهم يتحدثون حول صفقاتهم وأعمالهم، وكل منهم يحمل كأسًا فارغًا أو ممتلأ بعضه، وينظر إلى شريكته الضاحكة بجواره مبتسمًا بين حين وآخر مجاملًا، وقد تسلل إلى سمع

الجميع صوت "شادي" وهو ينهي أغنيته الحالمة بأبياتها الأخيرة، ناظرًا إلى محبوبته وخطيبته "حبيبة" مُرسلًا كلماته إلي عينيها مباشرة.

أنهى أغنيته مبتسمًا لها، بينما صفق من حولهما بحرارة وإعجاب، وقد تداخلت الأصوات، يبدي بعضها إعجابًا وتساؤلًا عن كلمات الأغنية هل هو من كتب كلماتها أم لحنها فقط وغناها.

حاول أن يسيطرعلى ابتسامته الواسعة التي تزيده وسامة وهو يجيبهم، معلقًا عينيه بالجالسة بجواره مضطربة، فهي رغم اعتيادها على تلك الحفلات الصاخبة، إلا أنها تخجل من كونها محط أنظار الجميع، وقد ازداد ارتباكها وهي تسمعه يقول:

- أنا كتبتها ولحنتها مخصوص علشان عيد ميلاد "حبيبة"

أنهى كلمته وهو يأخذ كفها برقة بين أصابعه، ويطبع عليه قبلة صغيرة، ناظرًا إليها متابعًا:

- كل سنة وانتِ طيبة يا حبيبتي.

فجأة، شعرت بيد تجذبها بقوة، فاستدارت بجسدها دفعة واحدة محاولةً تحرير مرفقها وهي ترفع رأسها.

ارتطمت عيناها بوجه أختها الكبرى "نشوى"، بقوامها المعتدل ورأسها المرفوع وأنفها الشامخ بتكبر، وثوبها الأسود الصارخ بأنوثتها، وعينيها الثاقبتين الخاليتين من المودة.وبمرح مبالغ فيه،دعت"نشوى"الجميع إلى مأدبة الحفل، فعلت الأصوات وتسابق الشباب والفتيات، بينما اكتفت "حبيبة" بإلقاء نظرة عدم رضا إلى أختها،التي انتزعتها بشكل لا يليق من بين أصدقائها، ثم لحقت بها بجوار"شادي"، مستكينة إلى منتصف القاعة بالسفينة،حيث تحلق معظم المدعوين حول الطاولة الكبيرة التي تتوسطها كعكة ضخمة،وأشارت

"حبيبة" بيدها إلى أختها الصغرى "سلمى" ذات الستة عشر ربيعًا، لكي تأتي إلى جوارها، فقد كانت تقف –كعادتها- في الخلف بمفردها، ترتدي نظارتها الطبية الرقيقة، وثوبها الأبيض المنسدل، ليرسم لوحة فنية صغيرة عنوانها "مشروع طبيبة".

أُطفئت بعض المصابيح القوية الملونة، وتطاير الشرر حول الشموع النارية الصغيرة، والتي تصدر قرقعات مبهجة ممزوجة بموسيقى هادئة، تسللت بنعومة إلى آذانهم من خلال السماعات الصغيرة المنتشرة بحرفية في زوايا تلك السفن الضخمة.

هدأ الصخب، وبدأت الموسيقى الناعمة البطيئة في الانسياب، ووقفت "نشوى" وسط الساحة الراقصة تبحث بعينيها عن زوجها المنشغل دائما، إما بعمله أو بمضاحكة الفتيات. وما إن رأته،حتى أشارت له برأسها،فاقترب منها مبتسمًا، وتناول كفها بين يديه ولف يده الأخرى ليلامس ظهرها، وبدأ في مراقصتها كما يفعل الجميع.

ابتسمت له ابتسامة صفراء وقالت:

- هو أنا لازم أشاورلك علشان تيجي؟

تنحنح "راغب" وهو ينظر بخفة إلى يساره، ثم يعود برأسه إليها بابتسامة جليدية:

- آسف يا حبيبتي ماخدتش بالي إنك لوحدك.

نفضت غضبها منه وهي تشرئب بعنقها ناظرة إلى المرأة الأربعينية التي كانت تسير بصحبة والدها، ليتوقفا بجوار "حبيبة" وخطيبها "شادي"، وقبل أن تتساءل، لمح زوجها النظرة الفضولية المطلة من عينيها بضراوة، فقال مُعَرِّفًا:

- دي يا ستي أحد الأسباب الرئيسية اللي خلت عيد ميلاد أختك يتعمل في القاهرة.

تحولت بعينيها إليه بتساؤل أكبر، فأوما برأسه مؤكدًا لحديثه وهو يتابع بسخرية:

- المدام صاحبة شركة من أكبر شركات الإنتاج الفني هنا في القاهرة.

ثم غمز بعينيه بخبث قائلًا:

- ومتخصصة في اكتشاف المواهب الشابة.

رفعت حاجبيها بدهشة، وما لبثت قليلًا حتى انفرجت شفتاها عن ابتسامة صغيرة ماكرة، وهي تنظر إلى والدها الذي يقوم بتعريف "شادي" إلى المرأة،التي كانت تصافحه بل وتفحصه، ومن الواضح أنه يتحدث عنه بحماس زائد.

الآن فقط زالت دهشتها التى تملكتها منذ أن قرر والدها إقامة حفل ميلاد "حبيبة"في القاهرة وفي هذه السفينة،فهي تعلم طبيعة والدها جيدًا،لا ينفق قرشًا زائدًا إلا إذا أيقن أنه سيعود إليه آلافا مضاعفة. تيقنت من ذلك عندما رأته يبرم إحدى صفقاته.

رفعت له القبعة في تلك اللحظة،فهي تتمنى أن يتخلص من هذا المتطفل،الذي دخل عائلتهم بناء على رغبة محبوبته وحدها، فلم يكن يوما يليق بتلك العائلة العريقة.

وضعت السيدة "بثينة" أطراف أصابعها على كتف "شادي" وهي تنظر إلى "حبيبة" بابتسامة باردة وقالت بتساؤل:

- تسمحي يا آنسة "حبيبة" آخد خطيبك شوية؟

ابتسمت "حبيبة" متوترة، وهي ترى "شادي" ينقل بصره بينهما بنظرات مرتعشة، من فرط سعادته واندهاشه من وجود شخصية مشهورة مثل السيدة "بثينة"، المعروفة بتبني الوجوه الشابة، من خلال شركة إنتاجها الكبيرة، وحديثها معه بحماس عن موهبته وصوته الذي استمعت إليه منذ قليل ولفت انتباهها.

قررت "حبيبة" أن تمنحه الفرصة التي يطلبها منها بعينيه ونظراته الزائغة، وابتسمت وهي تومئ برأسها موافقة، وانسحبت من دائرة الرقص متجهة إلى والدها مباشرة، ووقفت بجواره وهي تهمس إليه:

- لو سمحت يا بابا عاوزاك في حاجه مهمة.

التفت الرجل الذي كان يقف بصحبة والدها إليها، ثم أطلق صفيرًا منغمًا وهو يتفحصها بعينيه عن كثب موجهًا حديثه لوالدها:

- ماقلتش يعني يا "سليم" باشا إن عندك بنات حلوين أوي كده؟

ابتسم "سليم" بزهو وهو يعرف ابنته إلى الرجل قائلًا:

- "حبيبة" بنتي، كلية آداب.

ابتسمت "حبيبة" ابتسامة مغتصبة،انفرج جزء من ثغرها بصعوبة لها، وهي تومئ مجاملة للرجل،الذي عرف نفسه على الفور بفخر:

- طبعًا عارفاني، ماحدش في مصر كلها مبيشوفش الأفلام اللي بانتجها؟

أومأت مرة أخرى وهي تقول باقتضاب:

- أهلا يا فندم.

مد يده على الفور إليها وهو يقول بثقة:

- تسمحي تشرفيني وتوافقي ترقصي معايا ؟

وضع والدها كفه على ظهرها، وهو يربت عليه وينظر لها نظرة تعرفها في تلك المواقف،التي تكرهها ولكنها لا تستطيع الرفض.

استجابت ليده الممدودة إليها، ووضعت راحتها بداخلها بسكون، فأخذ يدها بحركة مسرحية وقبلها، ثم أخذها إلى ساحة الرقص الصغيرة، وبدأ في مراقصتها، وشرع في الحديث عن نفسه وأعماله وقتًا لا بأس به، وهي مشتتة الفكر تنظر إلى "شادي"،الغارق في الحديث الهامس والابتسامات الصغيرة مع رفيقته الأربعينية،التي بادلتها نظرات باردة وهي تقول موجهة حديثها إلى "شادي":

- خطيبتك شكلها بتغير عليك أوي يا فنان.

ألقى "شادي" نظرة إلى "حبيبة" الشاردة، ثم عاد بنظراته إليها وقال نافيًا:

- لا أبدا دي "حبيبة" سبور ومتفتحة.

عادت "حبيبة" من خضم أفكارها إلى أرض الواقع، عندما شعرت بضغطة صغيرة على خصرها، ورفيقها يقول بنبرة لم تعجبها:

- تعرفي يا "حبيبة" عليكي بروفايل يجنن، الشاشة هتحب وشك أوي.

ابتلعت ريقها بصعوبة وهي تقول بتوتر:

- لا أنا ماليش في حكاية التمثيل دي خالص.

رفع حاجبيه بدهشة وهو يقول متفحصًا لها:

- ليه، ده انتِ فيكي كل المواصفات؟!

نظرت في اتجاه آخر وقد تغير وجهها، محاولة البحث عن مخرج يجعلها تستأذنه بلباقة وتنصرف بدون مشاكل، وهي تتذكر كلمات والدتها الموبخة لها دائمًا " لما حد يتطاول ويضايقك اتصرفي بلباقة وذكاء وبلاش شغل الفلاحين بتاعك ده.. أنا مش عارفةانتِ ليه مش ذكية زي "نشوى".!

توقفت الموسيقى،لتهديها الحل السحري لانسحابها بهدوء بدون أضرار، وهي تنسلخ من بين ذراعيه مبتعدة وتخطو خطوات واسعة سريعة،وكعب حذائها العالي يطرق الأرض طرقات صغيرة،اختلطت بمقطوعة الموسيقى التي أعلنت عن بدء حالة جديدة من الصخب. وجدت نفسها أمام الدَرج المؤدي إلى الطابق السفلي من السفينة، فهبطت سريعًا وهي تكاد تسمع دقات قلبها مختلطة بصوت أنفاسها اللاهثة.

كان الجزء الأسفل مظلما بعض الشيء،وهدير المياه،إثراختراق السفينةلها، يعلن عن نفسه بوضوح أكثر، وأعمدة الإنارة على أحد الكبارى تعكس ضوءها الخافت على تلك البقعة التى تقف فيها.

استندت إلى أحد الأسوار الخفيضة بمرفقيها وهي تنظر إلى المياه بعقل شارد.. لماذا اقترح والدها السفر إلى القاهرة وإقامة الحفل على سفينة في نيلها؟قطعًا لم يفعل ذلك من أجلها،إنما هي صفقاته التي لا تنتهي.

شعرت بحنين إلى مدينتها عروس المتوسط الأسكندرية، برمالها وشطآنها وحصبائها وأمواج بحرها، مما جعلها تتمسك بحافة السور المنخفض، وقد وجدت ابتسامة طفولية مشاغبة طريقها أخيرًا إلى شفتيها، وهي تحاول الجلوس عليه وتجاهد تلك الرهبة الخفية التي تسللت إلى قلبها مع اندفاع الهواء إلى رئتيها، وهي تشاهد المراكب الصغيرة السابحة بجوار السفينة العائمة بهدوء،وتلمح طفلا صغيرا يقف على مقدمة أحد تلك المراكب بثقة، ويشير لها بكلتَى يديه.

أشارت إليه بابتسامة واسعة وحماس كبير.. كانت تنشد الابتعاد والهدوء ولكن المفاجآت لم تترك لها الفرصة الكافية.جاءتها صرخة باسمها من الخلف، جعلتها تجفل وتضطرب و.. تنزلق..

ها هي تواجه هذا الوحش الهادر وحدها للمرة الثانية، بعد أن اصطدم رأسها بحافة السور، وهي تحاول التمسك به.لم تستطع إلا أن تلمسه أناملها، كما حدث منذ سنوات، وكأنه شريط سينمائي لايوجد به سوى هذا المشهد فقط، مكررًا نفسه أمام عينيها،التي دارت معه في حلقة مفرغة.وارتطم جسدها بالمياه الباردة التى غمرت سريعًا، لتبتلعه ظلمتها الحالكة في ثوانٍ معدودة.

* * *

- 2 -

غلف الظلام عقلها، وأحاط أوصالها ببرودته، وتداخلت الأصوات والأضواء، حتى شعرت بالصمم المفاجئ. لم تفلح حركاتها العشوائية وهي تضرب المياه بيديها ورجليها، وجثم ثقل مياه النيل وظلمته فوق رئتيها، وانقطع الأمل في الحياة..أهي النهاية؟ لابد وأنها كذلك!

لاح شعاع ضوء أبيض آتٍ من بعيد،شيء ما يسبح نحوها بقوة، بل بجنون، يشق المياه شقًا.. غير معقول، ها قد بدأ كيانه في الظهور.. رجل قوي البنية، يسبح نحوها بسرعة غير اعتيادية، يصوب بصره نحوها وهو يتجه إليها، وكأنها هدف له لا رجعة فيه.. ها قد ظهر جليا..

مهلًا! إنه يغرق هوالآخر، ويضرب المياه مثلها.. ولكن كيف؟!

كيف اقتربا إلى هذا الحد، وبتلك السرعة؟.. رأى كل منهما نجاته في الآخر، واتفقا دون حديث، فدفعها للسطح وجذبته معها!

كيف استطاعت أن تراه، وهل تراه حقا؟! لقد اكتشفت أنها كانت مغمضة العينين،فهل انتقلت إلى العالم الآخر؟

رويدًا رويدًا، بدأ الظلام ينقشع ويلملم خيوطه ويطلق سراح عقلها، والوعي يحل محله ببطء.

لاح الشعاع الأبيض مرة أخرى، ولكن هذه المرة كان واضحًاوجليًا، يضرب مقلتيها بضوئه المبهر، والأصوات تتداخل ثانية، ولكنها استطاعت أن تميزها،واستطاع جسدها أن يشعر بالفراش المريح الذي تستلقي فوقه.

ثقيلة جفونها وهي تقاوم لتفتحهما بضعف، مقطبة الجبين، ورأتهم حولها،تتباين تعبيرات وجوههم ما بين الـ.. ماذا؟!

إنهم جميعًا ساخطون.. والدها، والدتها، وأختيها. كانت أول من تكلم منهم أختها الصغرى "سلمى":

- معقول يا "حبيبة"ما لاحظتيش ان السور مش مخصص ان حد يقعد عليه؟ بس عموما حمدالله على السلامة.

تحركت رأسها ببطء، عندما سمعت صيحة والدها من الجهة الأخرى يقول بغضب:

- انتِ هتفضلي متهورة كده لحد إمتى وطايشة؟شغلي كله اتعطل بسبب تهورك ده.

ثم اخترق أذنيها صوت والدتها بجواره وهي تقول بتأفف:

- دي أختك الصغيرة ماتعملش اللي بتعمليه ده. خليتي منظرنا وحش أوي.

أنهت جملتها وهي تلتفت إلى "نشوى"،التي قالت بضحكة ساخرة:

- وقعتي في الميه علشان ندهت عليكي؟، إيه،سمعتِ صوت عفريت ولا إيه!

استطاعت أن تحرك شفتيها بصعوبة، وسألت بصوت خافت ضعيف:

- فين شادي؟

حركت "نشوى" عينيها بمكر وهي تقول:

- بره في الاستراحة مع مدام "بثينة". أصلها صممت تيجي معانا المستشفى بنفسها

أغمضت "حبيبة" عينيها، وهي تستجدي الدوار أن يلفها مرة أخرى. ولكن طرقات خافتة على الباب قطعت عليها أمنيتها، وأتاها وقع أقدام تقترب منها، ثم شعرت به يجلس بجوارها ويتلمس كفها وهو يقول بعطف:

- حمدالله على السلامة يا "حبيبة".

فتحت عينيها، وانزلقت أول عبرة من مقلتها رغمًا عنها، لتغوص خلف أذنها، ومنها إلى ظلام خصلاتها المبعثرة على الوسادة، وقبضت على أصابعه كأنها تقبض على عبارته الرقيقة التي كانت تنتظرها وترجوها من عائلتها أولا. أغمضت عينيها بقوة، وهي تبلل شفتيها الظمآنة بلسانها، ولكنها تذكرت شيئًا ما لمع بذاكرتها فجأة، ففتحت عينيها وتساءلت بفضول:

- الشاب اللي طلعني من المية فين؟

تبادل الجميع نظرات الدهشة، بينما أجاب "شادي" بابتسامة صغيرة:

- شاب إيه يا"حبيبة" ده المراكبي العجوز اللي كنتِ بتشاوري لابنه الصغير قبل ما تقعي في المية هو اللي أنقذك.

ثم تابع وهو يربت على كفها بين يديه:

- الحمد لله أنه كان قريب منك ولحقك، ده انتِ اتكتبلك عُمر جديد.

قطبت جبينها وهي ترى لحظة سقوطها تمر أمام عينيها. بالفعل كان هناك رجل عجوز خلف الصبي الذي كان يلوح لها؛ ولكن ليس هو منقذها. لقد كان شابًا قويًا، تتذكره وتتذكر ملامحه.. لازالت تشعر بقبضته وهي تدفعها للأعلى.

شعرت بصداع قاتل وألم رهيب بجبهتها، فضغطت عليها بقوة ربما تُسكت هذا الدق المتواصل،بينماوالدها يتحدث في الهاتف إلى سائقه الخاص:

- جهز العربية حالًا هنرجع إسكندرية،كفاية عطلة بقى.

****

عادت إلى الإسكندرية، حيث منزلها وغرفتها المنعزلة التي تحبها وتلجأ إليها معظم أوقاتها التي تقضيها في المنزل.. تأوي إلى جدرانها، وتجلس خلف مكتبها الصغير، وتُخرج مفكرتها التي تدون فوق سطورها ما يمر بها من أحداث، تندهش لها أحيانًا ولا تجد لها تفسيرًا.

سطرت بأيدٍ مضطربة تلك الثواني التي قضتها تحت سطح النيل.. وكلما كتبت عبارة، وضعت خلفها علامة استفهام كبيرة. لم تستطع أن تفرق بين الحقيقة والوهم، رغم تذكرها لكل التفاصيل. لكن الفاصل الزمني انعدم تمامًا في تلك الثواني، وفي النهاية لجأ عقلها إلى إجابة منطقية، ربما تخرجه مما يعانيه من تخبط. ربما سقطت في غيبوبة بمجرد سقوطها في المياه، ورأت خلالها ما رأت، واعتقدت أنه حدث بالفعل!

****

انتهت العطلة سريعًا، واستعادت روحها المرحة، وتنفست بعمق وراحة وهي تخطو خطوات سريعة داخل الجامعة، باتجاه صديقاتها وتلوح لهن برقة وابتسامة شغوفة، وتؤرجح حقيبتها التي تقبض عليها بيدها الأخرى.اقتربت، وهي تستمع إلى نغم الجيتار يخرج من بينهن، فاتسعت ابتسامتها وقد أيقنت أن "شادي" ينتظرها ويعد لها حفلة استقبال صغيرة، بالاتفاق مع صديقاتها.

صافحت الجميع بحماس ونعومة، وما إن وصلت إلى كفه، حتى قبض عليها وقبَّل أصابعها مُرحبًا بعودتها سالمة، وأجلسها بجواره، وأخذ يغني لها -كما يفعل دائمًا- وصديقاتها يتابعن بابتسامات متفاوتة..ابتسامة حالمة، وثانية سعيدة، وثالثة يملؤها الحقد!

بعد قليل،انفض الجمع وغادرت الفتيات، بينما بقيت هي بصحبته كما ألح عليها. اعتدلت في جلستها،واستدارت إليه بجسدها كله وعينين مشرقتين وقالت بتساؤل:

- ها، عملت إيه مع مدام "بثينة"؟

اضطرب قليلًا، فلم يفهم مغزى سؤالها، وقال بارتباك:

- قصدك إيه يعني؟

رفعت حاجبيها بدهشة، وإن ظلت محتفظة بإشراقتها وابتسامتها الصغيرة، وهي تقول:

- اقتنعت يعني بموهبتك وناوية تنتجلك ؟

حرك رأسه وهو ينظر إلى عينيها بحيرة كبيرة ويقول بشرود:

- لسه مش عارف.

أراحت ذقنها إلى قبضتها، واستندت إليها متابعةً حديثها باهتمام:

- يعنى ايه، اقتنعت بصوتك ولا لاء؟

لاحظت أنه يهرب بعينيه منها وينظر في اتجاهات أخرى وهو يقول بضيق:

- مش عارف يا "حبيبة".. الحكاية مش سهلة؛ عقود ومستقبل وفلوس..

ثم تابع وهو ينظر إليها معاتبًا:

- انتِ عارفة الناس دي كل اللي يهمها فلوسها هتروح فين ولمين ؟

زمت شفتيها بقوة وهي تطرق برأسها وتقول بأسف:

- معلش يا "شادي"، هو بابا كده، ومش معاك إنت لوحدك، ده حتى إحنا بناته.

وجدت عدم الاقتناع مازال يحتل عينيه، فحاولت أن تضيف بعض المرح إلى حديثها وهي تقول مؤكدة:

- دي حتى "سلمى" أختي لما قالت إنها نفسها تدخل كلية صيدلة ويبقى عندها صيدلية باسمها كلمها وحش أوي والبنت جالها إحباط.

عقد ذراعيه فوق صدره بتحدٍ وهو يقول:

- و "راغب" جوز أختك، مش برضه بيشتغل معاه في فلوسه ؟

مالت برأسها يمينًا وهي تنظر إليه مشفقة وتقول:

- "راغب" أصلا كان عنده شركة مستقلة، ولما بابا كان داخل صفقة كبيرة طلب يشاركه فيها، وبعد ما اتجوز"نشوى" صفَّى شركته وحط فلوسه كلها في شركة بابا ومن ساعتها وهما بيشتغلوا مع بعض.

ألقى برأسهِ للخلف، وأغمض عينيه في سكون وقد آثر الصمت. مرت أحلامه وأمنياته كالبرق، وأخذت تدور بعقله تارة وبقلبه تارة، وهو يتذكر أيامه الخوالي منذ سنوات، عندما كان يعزف بآلتهِ الوترية في هذا الحفل مرة وعلى هذا الشاطئ مرة، لعل أحدًا يكتشفه ويقدمه للوسط الغنائي ويتبنى موهبته؛ ولكن كل محاولاته باءت بالفشل، وفي كل مرة كان يعود أدراجه إلى الشاطئ خائبًا حافي القدمين، يقذف بهما الرمال هنا وهناك بسخط، مصطحبًا "جيتاره" الذي أصبح جزءً لا ينفصل عنه.

حتى جاء ذاك اليوم الذي دُعي فيه إلى الغناء في حفلة بالجامعة، وهناك رآها..انصرفت كل عواطفه تجاهها، ربما لأنها المرة الأولى التي يرى فتاة تجمع بين مستوى اجتماعي رفيع وبساطة شديدة في التعامل؛ ليس من باب التواضع وإنما هي طبيعتها الشخصية. وخلال أيام قليلة كان قد تعرف إليها، عن طريق إحدى صديقاتها المقربات، واندمج ببساطة بين مجموعة أصدقائها في الجامعة، وبين يوم وليلة أصبح "فنان الشلة" وأصبح من بينهن معجبات يحاولن الوصول إليه، ولكنه اختارها هي ليغني لها وحدها، ويزج باسمها في كلمات أشعاره بين الحين والآخر.اختارها بعقلهِ وقلبهِ سويًا، لتكون حبيبته وزوجته، وفي نفس الوقت يحتضنه والدها ويضع قدميه على أول طريق النجاح الذي يبغيه.

استطاع أن يقترب ويحقق نصف حلمه، ولكن النصف الآخر تحطم وتبعثر بقوة أمامه، حينما رفض والدها وأنهى حواره معه بعبارته التي نقشت بسكين في صدر أحلامه "اعتمد على نفسك واحمد ربنا إني وافقت عليك أساسًا".

والآن، ها قد بدأ الحلم يزحف من جديد إلى النور؛ ولكن لكل نجاح تضحياته وثمنه الذي يجب أن يُسدد أولًا!الآن، وجب عليه أن يختار: إما هي وإما أحلامه،التي ستتجسد أمامه أخيرًا بعد أن كانت مجرد أمنيات. فهل ننثر القلوب المحطمة لنُعَبِّد بها طرقنا المتهالكة!

****

توالت الأيام، وتراجعت الاتصالات الهاتفية بينهما، وانعدمت المقابلات.في كل مرة كان يعتذر بانشغاله..وأكثر من مرة تفكر وتبحث عن سبب إصراره على الابتعاد. ماذا فعلت؟ ولماذا كان حزينًا هكذا وهو يخبرها بموافقة شركة الإنتاج على بداية العمل معه وتحديد ميعاد توقيع أول عقد بينهما؟ أيكون حزينًا لفراقها؟ فلقد أخبرها أنه مضطر إلى ترك الاسكندرية والانتقال إلى

القاهرة، ليكون بجوار عمله، ولأن نقطة بداية الانتشار الحقيقية هي القاهرة. كانت عيناه تقطرا ألماً،وصافحها وكأنه يودعها إلى الأبد.

كان العام الدراسي قد شارف على الانتهاء، ولم يتبق سوى أسابيع قليلة على بداية اختبارات السنة النهائية لها في الجامعة،حين بدأت تشعر بتوتر غير طبيعي بمنزلها. الانفعال والعصبية والتوتر أصبحوا عنوان المنزل، فانزوت أكثر وزادت حيرتها.. هناك شيء ما يحدث!!

* * *

- 3 -

ثمة تعثُّر ما يلوح في الأفق. ما يموج حولها ينطق بهذا. بدا الوجوم على والدتها، وبدت أكثر شرودًا وأقل مرحًا.. لم تعد تذهب إلى النادي الرياضي للمشي كل صباح.. لم تعد تحدث صديقاتها في الهاتف كثيرًا..امتنعت عن إقامة الحفلات بمنزلهم.أما والدها، فلم يعد يتكلم.. بات يصرخ ويهدر، كلما دخل غرفة مكتبه الخاصة. أختها "نشوى" منذ أن وضعت طفلها الأول وهي غائبة عن المشهد برمته،بينما زوجها "راغب" تراه كثيرًا في الآونة الأخيرة.

كانت قد انتهت من ارتداء ملابسها، ووقفت أمام مرآتها وهي تضع اللمسات الأخيرة قبل أن تغادر، وفي نفس الوقت تتحدث إلى إحدى صديقاتها في هاتفها النقال.لمحت في المرآة باب غرفتها يُفتح، وهي تضع عطرها المفضل في عجلة من أمرها.

ابتسمت بمرح وهي ترى "نشوى" تخطو داخل غرفتها حاملة طفلها الصغير، والذي لم يبلغ شهره الثاني بعد، بين يديها، فتوجهت إليها على الفور، وأخذت الطفل بنعومة فوق ذراعيها، وهي تداعبه بسبابتها بخفة، تلامس شفته السفلى الصغيرة، وتصدر أصواتًا مضحكة تلاطفه بها، منسجمة تمامًا معه. إلا أنها تذكرت موعدها مع صديقتها، والذي نسيته منذ لحظات عندما رأت

هاتين العينين البريئتين اللتين تتفتحان بالكاد، فأعادته إلى أختها وهي تتكلم بسرعة قائلة:

- معلش يا "نشوى" مضطرة أسيب القمر ده وأنزل،اتأخرت أوي على معادي.

وقبل أن تتحرك من مكانها، أوقفتها "نشوى" بردٍ أجبرها على التصلب مكانها، وكأنها تحجرت فجأة:

- يابرودك يا شيخة، ولا على بالك كل اللي احنا فيه !

التفتت "حبيبة" إليها برأسها متعجبة وهي تقول:

- في إيه يا "نشوى"، بتكلميني كده ليه؟

استدارت "نشوى" بجسدها كله، واتخذت موضعًا متحفزًا وهي تقول بشراسة:

- طبعًا.. ماانتِ نايمة في العسل وماتعرفيش إن بابا خسر في آخر صفقة دخلها وبقينا كلنا مهددين بالإفلاس ؟!

حاولت "حبيبة" أن تستوعب تلك الكلمات،التي أُلقيت في وجهها دفعة واحدة، وهي تُكرر آخر كلمة طرقت سمعها بشدة:

- إفلاس!

طرقت " أمل" الخادمة الباب في تلك اللحظة، وهي تدلف بجزء من جسدها إلى الداخل قائلة بأدب:

- مدام "نشوى"،"فريدة" هانم عاوزه حضرتك بره.

احتقن وجه "نشوى"، ناهرة إياها بقوة:

- قلتلك مليون مره اسمي"نشوى" هانم، فاهمة؟!

أطرقت الخادمة برأسها في ذعر، وقد تشابكت حروف اعتذراها واختلطت بارتباك وخوف، حتى شعرت براحة يد "حبيبة" الدافئة توضع على كتفها قائلة:

- معلش يا " أمل" روحيانتِ دلوقتي.

لملمت "أمل" شتات نفسها وهي تتراجع للخلف، وخرجت متجهة إلى البهو، بينما انسحبت "حبيبة" خلفها من الغرفة في صمت، متوجهة إلى والدتها مباشرة بخطوات سريعة، و"نشوى" تلاحقها بخطوات أسرع وعينين يتطاير منهما الشرر والطفل يهتز بين يديها بشدة من فرط تحركاتها العصبية.

اقتربت "حبيبة" من والدتها،وانحنت لتضع قبلة صغيرة على وجنتها قبل مغادرتها، ولكن كلمات "نشوى" أوقفتها للمرة الثانية، ولكن هذه المرة لم تكن حادة فقط، بل كانت ذابحة:

- طب ماتنسيش بقى يا أم قلب حنين تكلمي حبيب القلب وتباركيله على الجواز

ظلت منحنية لثوان، وكأن الزمن قد توقف بها في تلك اللحظة.

لم تفق منها إلا عندما سألت والدتها"نشوى":

- جواز مين يا "نشوى"؟

خطت "نشوى" بهدوء تجاه أحد المقاعد الوثيرة،التي تتوسط حجرة المعيشة، وجلست مستقيمة الظهر، ثم قالت وهي تلتفت بينهما برأسها ببطء، وتزم شفتيها:

- "شادي" و"بثينة" هانم. كل المجلات الفنية ناشرة خبر جوازهم بالصور.

تجمدت ملامح "حبيبة" للحظات، إلى أن زحفت ابتسامة صغيرة إلى أحد جانبي ثغرها وهي تقول بعدم تصديق:

- مستحيل طبعًا !

عادت والدتها إلى استرخائها مرة أخرى، وهي تنفخ بقوة معقبة:

- أحسن، بلا قرف.

أنهت عبارتها وهي تلتفت إلى "حبيبة"،التي تركتهما وغادرت على الفور بصمت، ثم عادت مرة أخرى إلى "نشوى" بعينين قلقتين، فقالت "نشوى":

- دي أصلها متدلعة سيبك منها، خلينا في اللي إحنا فيه.مافيش جديد في كارثة الديون دي؟

****

أخذتها قدماها إلى حيث يعيش مع عمته المسنة، في ذلك المنزل القديم. تصارع بداخلها مشاعر التصديق، مقاومةً كل الأدلة التي تؤكد حديث أختها، وما لاحظته من تغيير كبير في تصرفاته في الآونة الأخيرة.

وبعد دقائق من عمر الزمن، وجدت نفسها تجلس في شرفة فسيحة، تطل على أحد الشوارع الجانبية بصحبة عمته،تفصل بينهما طاولة صغيرة، موضوعة عليها أدوات القهوة، وفنجانين قد امتلئا إلى المنتصف تقريبا، وتقص عليها ما سمعته متسائلة عن مدى صدقه. ولكنها لم تجد سوى نظرات حائرة بداخل عينين غائرتين تحيطهما أجفان متجعدة بفعل الزمن، وكلمات منفعلة مزجت بين الدهشة والضيق، قالتها عمته وهي تهندم وشاحها الأسود فوق كتفيها:

- لا يابنتي إوعي تصدقي الكلام ده، هو بيكلمني كل كام يوم يطمن عليا لو كان إتجوز كان قال لي.

لم تر أي أثر للاقتناع على وجه "حبيبة"،فمازال جبينها مقطب والحزن يلمع بعينها، فاستطردت قائلة:

- انتِ لسة مصدقة الكلام الفارغ ده؟

أشاحت "حبيبة" بوجهها وهي تجيب بخفوت:

- لو الكلام ده غلط، ليه مش بيرد على تليفوناتي المدة دي كلها؟

حاولت عمته أن تقطع الشك باليقين، فتناولت هاتفها النقال ومدت ذراعها به لها وهي تقول بثقة:

- طب أنا هاكلمه قدامك وأخليه يقول لك إن الكلام ده كله كدب، بس طلعيلي انتِ اسمه من هنا علشان التليفون ده خطه صغير أوي وأنا نظري بقى على قدي.

أخذت "حبيبة" الهاتف بتردد، وضغطت أزراره تبحث عن اسمه حتى وجدته. ألقت نظرة سريعة على الرقم أسفل الاسم، ورفعت حاجبيها بصدمة بالغة وهي تُتمتم:

- يااااه.. وكمان غير رقمه!

لم تسمع عمته تلك الهمهمات، فلقد كانت منشغلة بانتظار إجابة الرنين بحماس كبير، وأخيرًا أتاها صوت أنثوي يجيب بشكل روتيني، فقالت المرأة على الفور:

- إديني يا بنتي "شادي" ابن أخويا، قوليله عمتك.

أجابت السكرتيرة ببرود:

- آسفه يا فندم عنده تسجيل. حضرتك ممكن تكلميه بعد الساعه عشرة يكون خلص.

انفعلت المرأة أكثر وقالت بعصبية:

- تسجيل إيه وبتاع إيه، باقولك قوليله عمتك عاوزاك.

وقبل أن تنهي عبارتها، وجدت "حبيبة" تسحب منها الهاتف وتضعه على أذنها وتقول:

- طب من فضلك إديني عنوان الاستديو علشان عاوزينه في أمر ضروري.

دونت العنوان، وأغلقت الهاتف ووضعته على الطاولة أمام المرأة، وهي تتناول حقيبتها بحركة سريعة وتتحرك للخارج بصمت أنبأ العجوز أنها عازمة على السفر الآن، فقالت بجزع:

- رايحة فين يا "حبيبة"؟ هتسافري القاهرة لوحدك يا بنتي؟! ده المغرب قرب.

ولكنها لم تستمع إلى حرف مما قيل.

كانت هي الأخرى تسعى إلى قطع الشك باليقين، ولم تكن تكفيها محادثةً عبر الهاتف. كانت تريد المواجهة لتتأكد بنفسها، فربما يكذب عليها عبر الهاتف، ولكنه لن يستطيع الكذب وهي تنظر إليه مباشرة.

دون تفكير، خطت داخل محطة القطار، وحجزت مقعدًا في أول قطار متوجه إلى القاهرة، وجلست تنتظر. لم تشعر بالوقت، ولم تفكر في شيء سوى مواجهته، لتسأله سؤالًا واحدًا وهي تنظر إليه: لماذا؟

ها هو القطار يمضي بها إلى مدينة غريبة عنها، لم تسع إليها وحدها مطلقًا. ها هي الآن تجلس وحدها بداخل قطار يسرع بها، يسافر بها وحدها.. نعم كان هناك ركَّاب كثُر، ولكنها لم تر سوى الأعمدة المتلاحقة، والتي بدت تسابق القطار وتحاول تخطيه، ولكنها تفشل دومًا.

تنظر عبر النافذة التي تغبر زجاجها بأنفاسها الحارة إلى جانب الطريق الذي يلتهمه القطار سريعًا، وهي تستند برأسها إليه. وما إن أسدل الليل أستاره، وبدأت أعمدة الطريق تنير بقوة، حتى بدأ شريط الذكريات يتلاحق هو الآخر، كتلاحق تلك الأعمدة.

تذكرت حفلة الجامعة التي رأته فيها وأُعجبت بصوته الدافئ وإتقانه أداء الأغنيات القديمة التي تعشقها.. وفي يوم وليلة،كان قد تقرب منها وتعرف إليها أكثر وأكثر واندمج مع كل مجموعة تجلس إليها،كان يوجه أحاديثه وكلمات أغنياته واهتمامه إليها هي وحدها بشكل خاص، حتى لفت انتباه الجميع، وبدأت الفتيات تتحدثن بهمس إنه مُعجب ولهان. تذكرت اضطرابها وانصرافها من أمامه على الفور عندما صارحها بمشاعره، وظلت لأيام بعدها تسأل نفسها: هل أنا أيضا معجبة به، أم أنا فقط معجبة بصوته وطريقة أدائه لألحاني المفضلة؟

طاردتها همسات الفتيات من حولها، تلك الهمسات التي جعلتها تشعر أنها مُميزة لأنه اختارها هي من بين الجميع. لقد كانت تحتاج إلى هذا الشعور بشدة، الشعور بالاهتمام والتميز الذي تفتقده داخل عائلتها الصغيرة،فتركت لمشاعرها العنان معه، واستسلمت لرياح الحب القادمة من شماله إلى جنوبها المتجمد دائما ببرودة المصلحة والحسابات الخاصة والصفقات الرابحة والحفلات الصاخبة.

بدأ رصيف وصول القطار إلى محطته المنشودة في الظهور، وعاد كل شيء يسير ببطء وعلى مهل. زحف القطار حتى توقف تمامًا واستقر، واستعد الجميع للمغادرة، كل إلى طريقه. وانسلخت هي من بين الجميع تشق طريقها، وهي تحمل الورقة التي دونت بها العنوان، وتنظر يمنة ويسرة تبحث عن وسيلة تُقلها إليه، حتى وجدت سيارة أجرة تنتظر بجوار الرصيف الخارجي

للمحطة. أومأ السائق برأسه يؤكد لها أنه يعرف الطريق جيدًا، ورغم أنه على مسافة ليست بالقصيرة، إلا أنه سيقلها إليه أسرع من الريح.

وبدأت رحلة أخرى داخل المدينة المزدحمة والسيارات المتشابكة، حتى هدأ كل شيء رويدًا رويدًا، وانطلقت سيارة الأجرة أسرع مما كانت عليه بكثير، وبدأت بعض كثبان الرمال المنخفضة على جانبي الطريق في الظهور.

لم تكن تعي ما حولها، ولا أين هي ذاهبة. كانت شاردة،حتى توقف السائق بجوار مبنى كبيرحديث، تحيط الأضواء بالطابق الأسفل منه، وتقف أمامه بعض السيارات ذات الطرز الحديثة.التفتت مضطربة إلى السائق،الذي أنبأها بالوصول.

ترجلت من السيارة تتلفت باحثة عنه أو عن أيشيء يدل على وجوده،فرأته وهو يخرج من الاستوديو مُحيطًا كتفي "بثينة" بذراعه. معقول!.. هل هذا هو"شادي"؟!.. لقد تغيرت هيئته، حتى كادت أن تتغير ملامح وجهه!لكنه محتفظٌ بتلك الابتسامة الكبيرة التي تغزو وجهه بالكامل، كلما خطا خطوة جادة في طريق حلم عمره. إنه يكاد يطير فوق الأرض من فرط سعادته، وقد انتهى منذ قليل من تسجيل آخر أغنية في أول شريط غنائي باسمه، سوف يُطرح في الأسواق بعد أيام قليلة، ليستعد بعدها لتصوير أول "فيديوكليب" في حياته الفنية.

وبرغم أنها لم تصدر جلبة لتلفت انتباهه، إلا أنه استطاع أن يميزها من بعيد. لم يكن من الصعب أن تلفت انتباهه الأُنثى الوحيدة التي تقف بعيدًاعن دائرة ضوئه والمجال اللامع المحيط به.ارتبك وقد التقت عيونهما، ولم يعرف ماذا يفعل، حتى شعر بقبضة "بثينة" تحيط بمرفقه وهي تقول بغضب:

- إيه اللي جابها هنا دي؟

يبدو أنه لم يكن الوحيد الذي لفت وجود "حبيبة" انتباهه فعينيّ "بثينة" رصدتها في الحال، وحددت موقعها، البعيد لدرجة القُرب الشديد. تلعثمت الكلمات على شفتيه، وتعثرت حروفه، وقبل أن يعثر على الكلمة المناسبة، شدت قبضتها على مرفقه مرة أخرى وهي تستطرد بانفعال:

- اتفضل روح انهي الحكاية دي بقى ومش عاوزة أشوف وشها تاني.

تقدم منها خطوات رتيبة، محاولًا إضفاء بعض الهيبة على قدومه، حتى يقطع عليها طريق الشجار أو التوبيخ. وما إن وقف أمامها، حتى انصهرت هالة البرود التي أحاط نفسه بها، ودمعت عيناه وهو ينظر إلى عينيها الدامعتين، وأطرق برأسه في خجل، ولم يسعه إلا الجلوس بمقعد الاعتراف وهو يتحدث باكيًاعن خطاياه، في دقائق معدودة لم يكن يمتلك غيرها..

- أنا آسف، سامحيني، أنا كنت أناني واخترت نفسي وفضلت حلمي عليكِ. عارف إنك صعب تسامحيني، بس على الأقل حاولي تلتمسي لي ولو عذر واحد.

لم تستطع أن تنتظر أكثر من هذا، وهي تراه يعزف لحن الندم على أوتار كلماته البائسة. قاطعته بحسم متسائلة:

- ليه؟

سقطت عبرة سريعة، مسحها سريعًا وهو يلتفت خلفه خوفًا وارتباكًا، ينظر إلى "بثينة" ثم يعود إليها بجسده كله قائلًا في عجلة:

- كان نفسي أحقق حلمي وماكنش قدامي طريق تاني و...

قاطعته مرة أخرى ولكن بحزم هذه المرة قائلة:

- ليه ماصارحتنيش؟ ليه ماتكلمتش بصراحة وقلت إنك مش قادر تكمل معايا؟ مش يمكن كنت وفرت على نفسك وعليا كل ده!

رفع عينيه إليها، مصدومًا من ثباتها وقوتها في الحديث،فبرغم عبراتها النازفة. إلا أن عباراتها صلدة قوية. كيف تقف هكذا، تلومه على عدم صراحته معها، ولا تلومه على تركه لها؟ هل نزل من نظرها حتى خرج من قلبها بهذه السرعة، أم لم يكن بقلبها من الأساس؟خُيل إليه أنها اختفت وتبخرت من أمامه، بعد أن ألقت فوق رأسه كلمتها الأخيرة:

- ربنا يوفقك.

تيقن أنها انصرفت،عندما سمع صوت "بثينة" يلفحه من الخلف بسخرية:

- خلاص يا فنان ودعت حبيبة القلب؟

ابتلع ريقه بقوة وهو يتمتم محاولًا إخفاء دموعه:

- أنا كنت بقولـ...

جذبته باتجاه سيارتها مقاطعةً إياه، وهي تعانق أصابعه بين أصابعها برقة:

- مش مهم يا حبيبي كنت بتقول لها إيه، المهم إن حكايتك معاها خلصت خلاص.

حاول أن ينظر خلفه مرة أخرى، ولكنه لم يجرؤ على فعل هذا. فتح لها باب السيارة الخلفي، ورآها تجلس بأريحية تامة وهامة مرفوعة وابتسامة منحوتة،فأغلق الباب بهدوء، واستغل فرصة دورانه خلف السيارة،فألقى نظرة خاطفة لم تمكنه من تتبع أي أثر لها، وكأن الهواء قد حملها لينقلها إلى الإسكندرية مرة أخرى. فتح الباب الآخر، واستقل السيارة بابتسامة باهتة.

لم يستطع أن يمنع عقله من التفكير بها، ولا قلبه من الدعاء لها، فهي لم تكن مصدرًا لشقائه في يوم من الأيام،بل على العكس تمامًا،هو من دخل حياتها فجأة، وهو من انسلخ منها بلا وداع.

****

ها قد عاد عقلها إليها،ولكن ليفاجئها أنها تقف على طريق شبه خاوٍ، قلما ترى مصابيح سيارة تمر سريعًا عليه.الظلام يلف المكان،الذي هو صحراء لم يتم إعمارها وتنميتها بشكل كامل.أخذ عقلها يدور وهي تجاهد لمنع دموعها من الهطول، وتمسحها بعنف وقوة وهي تفكر كيف ستعود أدراجها في تلك الساعة من الليل، وبأي وسيلة، في هذا المكان الذي انقطعت منه الوسائل.

ها هوالليل وقد اقترب من منتصفه، ولكن حتى الآن لم يُعلن هاتفها عن أياتصال قلق من أهلها، ولا حتى رسالة تدعوها للاتصال بهم، وكأنهم لا يشعرون بغيابها ولا يتساءلون أين هي الآن وماذا تفعل ومع من؟!

ابتسمت حزينةًساخرةً من تساؤلاتها.. منذ متى وهم يقلقون بشأني أو يتساءلون أين أكون؟ منذ متى وأحد منهم يشعر بحضوري قبل غيابي؟!.. وها هو الشخص الوحيد الذي كان يهتم بي قد رحل هو الآخر، غير مبالٍ بما خلفه وراءه.

كان الألم شديدًا، ولكن صعوبة موقفها في تلك اللحظة كانت أشد، واحتل التفكير في كيفية عودتها وعيها بالكامل، ولم تترك رهبة المكان وصفير الرياح حولها مكانا بقلبها للحزن. خطت خطوات بطيئة وهي تلوح لإحدى السيارات القادمة، ربما رآها أحدهم ورأف بحالها وأقلها إلى طريق تستطيع أن تتخذه مسلكًا إلى محطة القطار.

صفير الرياح يلفها بشدة، ويثير خصلات شعرها ليبعثرها بقوة فوق جبينها وعلى كتفيها، وبرودة شديدة تدك أوصالها، وأصوات نباح قادمة من بعيد، تجبرها على احتضان جسدها بذراعيها بترقب وخوف، وهي تتلفت باحثة عن أي ملجأ لها.

وأخيرًا، بدت بارقة أمل في إحدى السيارات تقترب منها ببطء شديد، فابتلعت ريقها وهي تستعد لاستمالة عطف سائقها ليأخذها من هذا المكان الموحش. وما إن توقفت السيارة،حتى انحنت لتحدث سائقها وآخر يجلس بجواره،لم تُلق بالًا له ولا لنظراته المتفحصة لها وقالت باضطراب:

- لو سمحت ممكن توصلني لأي مكان فيه مواصلات؟ أنا أصلي مش من هنا، ممكن؟

تبادل صاحب السيارة نظرات مع الجالس بجواره، والذي قال على الفور بحماس وهو يفتح الباب ويخرج منه، ثم يفتح الباب الخلفي ويشير إليها قائلا بترحاب:

- آه طبعا يا حلوه إتفضلي إحنا تحت أمرك.

ابتسمت شاكرة وهي تجلس في المقعد الخلفي، ولكنها فوجئت به يدور حول السيارة، وبدلًا من أن يجلس بجوار السائق مجددًا، جلس بجوارها في الخلف.احتضنت حقيبتها إلى صدرها، وهي تضع يدها على مقبض الباب وتستعد لفتحه قائلة بخوف:

- في إيه؟

قبض على يدها، وسحبها إليه وهو يكممها باليد الأخرى ويشل حركتها تماما، فلم تستطع الصراخ أو المقاومة وهو يقول بعبث:

- إهدي كده يا حلوة خلينا نقضي وقت حلو مع بعض.

تشنجت عضلاتها، وشعرت أن قلبها سيتوقف في تلك اللحظة، وهي ترى السائق ينحرف عن الطريق ويدخل بهم في الصحراء مثيرًا خلف إطارات سيارته بعض الرمال،التي كانت تقف عليها ببراءة منذ لحظات،لا تعلم ما هو مُخبأ لها بعد لحظات!.

دقائق رهيبة مرت بها داخل السيارة بين يدي خاطفيها، وسيارتهما تقاوم الرمال محاولة السير بأقصى ما تستطيع، صرخاتها المكتومة فى راحة يد مهاجمها الجالس بجوارها، دموعها المنهمرة، مقاومتها الفاشلة،ثم توقفت السيارة وفُتحت أبوابها، وفُتح معها باب الجحيم. شعرت جسدها يُسحل خارج السيارة، ويُلقى به بين كثبان الرمال.. سقطت، ولا تعلم كيف نهضت من جديد، وبدأت بالركض.

لحقا بها سريعًا،وكبلها أحدهما للآخر، وصراخها يعلو وهي تتشنج وتقاوم باستماتة. وفجأة، لاحت من بعيد مصابيح قوية لسيارة قادمة، يصحبها صوت طلقات نارية، فدفعها أحد الرجلين بقوة، فارتطم رأسها بأحد الصخور البارزة من الأرض،وتداخلت الأصوات، ثم صمت كل شيء من حولها فجأة..

سكون، رؤية مشوشة لشخص يقترب منها وينزل على ركبتيه وينظر إليها عن قرب متفقدًا إياها، عاقدًا جبينه قلقًا ثم دهشة.. تحركت شفتاه بكلمات لم تسمعها، إذ دخلت في غيبوبة جديدة، غاصت فيها حتى الأعماق.

* * *

- 4 -

ها هو الضوء الأبيض قد عاد من جديد، ليضرب ناظريها.. ها هو جسدها يشعر مرة أخرى بالفراش الوثير الذي يسكن فوقه.. لماذا تكرهها تلك المدينة إلى هذا الحد؟ لماذا كلما عصفت بها الرياح إليها، آذتها وقذفت بها.. مرة في أعماق نيلها، ومرة أخرى بين أنياب ذئابها؟أرخت جفونها التي فشلت في فتحها، وحاولت أن تتحسس الضمادة التي تحيط برأسها وهي تشعر بهبوط يلفها.

وفجأة،انفرجا جفناها وفتحت عينيها وهي تشهق بلوعة ورعب، وانتفضت تحاول الجلوس،وقد طرقت صور متقطعة للسويعات القليلة الماضية ذاكرتها بجنون.

- اوعي تعملي زي الأفلام وتقولي إنك فقدتِ الذاكرة.

التفتت إلى محدثها وهي تضيق عينيها ناظرة إليه، محاولة تبين ملامحه أكثر وأكثر، حتى اتضحت تمامًا أمامها. فركت عينيها، ثم حدقت في وجهه الباسم بدهشة بالغة.

عاينته سريعًا بنظرات مضطربة.. يا إلهي! إنه هو.. ملامحه الجذابة، بنيانه القوي.. هو نفسه مُنقذ المياه، هو مُنقذ الصحراء!... ولكن كيف؟!، لقد كانت تعتقد أن ما رأته وهي تغرق مجرد وهم؛ فكيف يصبح الوهم حقيقة ويعود من جديد لينتشلها مرة أخرى؟ هل يتجسد الوهم إلى هذا الحد؟!

يبتسم، ويتحدث، وتسمعه بأذنها..

- انتِ يا شاطرة.. هتفضلي تبحلقي فيا كده كتير.

جاهدت لتخرج صوتها بصعوبة، وكأنه عالق داخل حلقها، وقالت بارتياب:

- هو أنت بجد؟

نهض واقفًا بحركة مسرحية، وهو يلوح بذراعيه صائحًابسخرية:

- أنا قلت بالكتير هتعملي فيها فاقدة الذاكرة لكن ماكنتش عامل في حسابي إنك هتطلعي هبلة.

فُتح الباب ودلف الطبيب بمعطفه الأبيض، واقترب من سريرها بخطوات رصينة وهو يقول مبتسمًا:

- حمدلله على السلامة يا آنسة.

وقبل أن تُجيبه، أردف مطمئنًا:

- ماتقلقيش؛ الحمد لله كابتن "حسام" أنقذك في الوقت المناسب.

نظرت إليه، فوجدته يعقد ذراعيه فوق صدره ويزم شفتيه، ثم يقول بغرور زائف:

- لالا مافيش داعي تشكريني ده واجب عليا.

رفعت حاجبيها ببلاهة، ثم عادت بناظريها إلى الطبيب،الذي تابع حديثه جادًا:

- إحنا أخدنا رقم والدك من تليفونك واتصلنا بيه.ارتاحي لحد ما يوصل.

ثم التفت إلى "حسام" وأشار إليه بسبابته محذرًا:

- أنا هامُر على كام حالة وأرجعلك تاني.. مش عاوز أي إزعاج للآنسة.

أومأ "حسام" برأسه:

- رغم إنك ظالمني بس حاضر يا "علي" مش هاعمل إزعاج.

يبدو أنهما صديقان، ويبدو أنه مشاغب من الدرجة الأولى. بمجرد أن خرج الطبيب من الغرفة، جلس على طرف الفراش في مواجهتها قائلا بشك وبنظرات ثاقبة:

- إيه اللي خلاكي تركبي معاهم العربية؟

نظرت إليه بغضب.. لأي شيء يلمّح؟ لقد تجاوز كثيرًا،ولن تسمح له بالحديث معها بتلك الطريقة. عقدت جبينها وانفرجت شفتاها.. ثم وجدت نفسها تقول بخفوت:

- أنا كنت عاوزه أروح المحطة علشان أرجع إسكندرية، وماكنتش لاقيه مواصلات خالص.

استند بظهره إلى الخلف وهو يقول معقبًا:

- كان معايا حق لما قلت عليكي هبلة.

حدقت به مرة أخرى، غير مصدقة الطريقة التي يتحدث بها إليها دون سابق معرفة. لم يبال بنظراتها المحدقة، واستطرد متسائلًا:

- وإيه بقى اللي جابك القاهرة لوحدك كده؟

انتفضت بغضب وهي تصيح:

- وانت مالك انت.. تعرفني منين علشان تقعد تحقق معايا؟

شعرت بصداع عنيف يهاجمها على إثر صياحها، فرفعت كفيها لتمسك برأسها بقوة، ولكن الألم قد ازداد حدة.سمعته يقول:

- طب أنا هاسيبك ترتاحي.

نهض واستدار ليخرج، وعندما اقترب من الباب استوقفته وهي تسأل بخفوت متألمة:

- هو أنت أنقذتني إزاي؟

استدار إليها بابتسامة غامضة، زادته جاذبية،وقال:

- صدفة!

ثم أردف وهو يفتح الباب بهدوء، ويمرر أصابعه فوق خصلات شعره المتمردة:

- أنا مش هامشي. أنا بره لحد ما والدك يجي.

اختفى خلف الباب المغلق بهدوء، فأغمضت عينيها بقوة وهي تستلقي ببطء وتزفر بقوة متمتمة بدهشة:

- مستحيل!

إنه حقيقي، ليس وهمًا.. ولكن مهلًا، هذا ليس وقته الآن؛ فهي تنتظر عاصفة الغضب التي ستأتي محملة بكل ماهو خانق، بصحبة والدها.كيف ستبرر أفعالها غير المسئولة أمامه، والتي كادت تودي بها إلى الهلاك؟

خفق قلبها قلقًا، وهي تستمع إلى دقات ساعة الحائط المعلقة أمامها، وكأن كل دقة فيها تنذرها بقدومه وبقرب العقاب. وأخيرًا،استسلمت للنوم العميق، بعد فشلها في إبقاء عينيها مفتوحتين.

****

ارتكن بظهره إلى الجدار، واستند برأسه إليه،يضغط جبينه بقوة من فرط الإرهاق والإجهاد الذي يشعر بهما، وهو يجيب صديقه الطبيب بحسم:

- يا "علي" مش هامشي غير لما أبوها يجي، ريح نفسك.

رفع "علي" حاجبيه، وارتسمت على شفتيه ابتسامة ماكرة معقبًا:

- يبقى زي ما أنا توقعت.. دي واحدة بقى من حريمك يا دنجوان.

التفت إليه بضجر قائلا:

- بلاش كلام فاضي، هو البعيد مابيعرفش يميز كمان؟

حك "علي" ذقنه بحيرة وهو يقول:

- أمال إيه بس.. تعرفها طيب؟

لم يستطع أن يمنع تلك الابتسامة الجذلة،التي ارتسمت رغمًا عنه فوق شفتيه وهو يتمتم:

- مش بالظبط.

زفر "علي" بقوة وهو يستعد للمغادرة:

- باقولك إيه..الحكاية مش ناقصة فوازير، أنا النبطشية بتاعتي خلصت والنهار طلع. هتيجي معايا ولا هتفضل هنا؟

ألقى "حسام" نظرة خلف كتفي"علي"، وهو يشير بعينيه إلى أحدهم خلفه ويقول بهدوء:

- تقريبًا اللي جاي ده أبوها !

لم يكن من الصعب تمييز رجل غاضب آتٍ من بعيد، يتلفت حوله وينظر إلى أرقام الغرف على الجانبين.وضع يده على كتف صديقه قائلًا:

- اسمع يا "علي" زي ما قلنا تحت في الاستعلامات، البنت جات هنا نتيجة حادثة سرقة؛ ماشي ؟

التفت إليه متعجبًا، وكاد أن يصيح، إلا أن "حسام" أشار إليه أن يخفض صوته، فقال:

- آه بس ده أبوها يا "حسام".

نظر له بحزم وقد دنا منهما الرجل الغاضب، ووقف وهو يوجه كلامه للطبيب متسائلًا بانفعال:

- أنا والد "حبيبة سليم"، حضرتك دكتور "علي" اللي كلمتني، مش كده؟

حاول "علي" أن يبدو واثقًا من حديثه وهو يقول:

- أيوه يا فندم أنا.

أومأ والدها برأسه بحركات عصبية وهو يعقد حاجبيه قائلا:

- ممكن أعرف إيه اللي حصل لها بالظبط؟

عدل علي من وضع نظارته الطبية، كمحاولة لبث الثقة في نفسه وهو يقول:

- الآنسةاتعرضت لحادثة سرقة وكابتن "حسام" أنقذها وجابها هنا المستشفى.

التفت والدها إلى "حسام"،الذي مد يده على الفور مصافحًا ومعرفًا بنفسه:

- "حسام الصياد" مُدرب لياقة بدنية.

تفحصه والدها لثوان وهو يصافحه، ثم قال بضيق:

- عملت محضر ولا حاجة يا أستاذ "حسام"؟

ارتفعت حواجبهما بدهشة بالغة؛ فلقد توقعا أن يسأل عن تفاصيل الحادث وما حدث لابنته وحالتها الصحية الآن. قرأ ما يجول بخاطرهما في نظراتهما المتعجبة، فتنحنح وقال متحرجًا:

- أنارجل أعمال وسمعتي هي رأس مالي، والصحافة ما هتصدق علشان تكبر الموضوع.

نظرا إلى بعضهما البعض في صمت، فتابع على الفور موجهًا حديثه للطبيب:

- ينفع آخدها دلوقتى يا دكتور ؟

وقبل أن يجيب اندفع "حسام" مقاطعًا:

- الدكتور كان بيقول إنها المفروض تعمل أشعة النهارده علشان نتطمن.

نظر له "علي" بضجر واضح،وتركهما "سليم" ودلف سريعًا إلى الداخل. تكلم "علي" بغضب، ولكن بصوت خفيض قائلا:

- انت بتستهبل يا "حسام"؟ هتتدخل في شغلي كمان ؟

زفر"حسام" بقوة وهو يعود إلى حالته الأولى مستندًا إلى حائطه مغمض العينين، يجيش صدره بالكثير من المشاعر والتساؤلات.لكنه لم يستطع أن يتجاهل تلك المعركة التي تدور في الداخل من طرف واحد!

أبعد قبضته عن مقبض الباب، يحاول أن يمنع نفسه من الدخول. ولكن صوت بكائها كان قويًا يجذبه إليها، كأنه يطلب منه الحماية ويدعوه للدخول بإلحاح. بكت بقوة وهي تجلس فوق فراشها وتضع كفيها فوق وجهها بؤسًا وألمًا، تُخفي عينيها المنكسرتين وهي تستمع إلى إهانات والدها المتتالية كرماح تخترق صدرها..

- جايه تجري وراه بعد ما سابك وفسخ الخطوبة ورماكِ؟انتِ إيه ما عندكيش دم؟ ما عندكيش إحساس؟.. عارفة لو كانت الحادثة دي وصلت للصحافة كان هيحصل إيه؟.. عاوزه تفضحينا يا "حبيبة"؟

ودت لو صرخت لتخرج ما يعتمل في صدرها.. لم تأتِ لتسترجعه، وإنما لتواجهه وتتأكد من الخبر بنفسها، وتعرف لماذا لم يواجهها وينفصلا باحترام ورُقي.

نعم أخطأتْ، ولكنها عوقبت وبشدة.تكفي لحظات الرعب التي مرت بها في الصحراء بين يدي خاطفها. تحتاج إلى الاحتضان والشعور بالأمان بين ذراعي والدها، لا إلى كلمات مميتة تخنقها وتجرحها وتنزع عنها كرامتها، لتبقيها في العراء تُسحق عظامها بداخل رحى الحياة، بلا مأوى حقيقي تلتجئ إليه وتحتمي فيه.

- هنرجع إسكندرية دلوقتي، ومن هنا ورايح مافيش خروج من البيت إلا لما تعرفي تحافظي على اسم عيلتك.. إحنا مش ناقصين بلاوي كفاية الخسارة اللي نازلة ترف على دماغنا.

شعر بمن يضع يديه على كتفيه من الخلف مهدئًا:

- اهدا شوية يا فندم الدكتور، بيقول الانفعال خطر عليها دلوقتي.

تركها، والتفت إلى "حسام".الذي كان يقف خلفه،ويقف "علي" بجواره كتلميذ مطيع تلقى تعليمات فورية من أستاذه وحان وقت إلقائها، فقال:

- كده خطر عليها يا فندم، إحنا لسه مااتطمناش على المخ. وبعدين المستشفى هنا تفهمت الأمر ووافقوا إن مافيش محاضر تتعمل علشان حالتها كويسة، لكن لو حصل مضاعفات ممكن يغيروا رأيهم.

زفر والدها بقوة وهو يبتعد عنها، ثم أخرج هاتفه وتحدث إلى والدتها منفعلا وهو يقص عليها ما حدث، ثم مد يده إليها بالهاتف دون أن ينظر إليها. وضعت الهاتف على أذنها بارتجاف،فسألت والدتها عن حالها باقتضاب، ثم أردفت وهي تنهي المحادثة:

- لينا كلام تاني لما ترجعي.

تنحى والدها جانبًا بعد أن تناول الهاتف، ليستكمل حديثه إلى والدتها مرة أخرى.كانت ترتجف كالعصفور المبلل بماء المطر، فاقترب "حسام" منها وقال بخفوت:

- والدك عارف إنها حادثة سرقة.

التفتت إليه بعينيها المغطاة بالدمع.. كانت تود أن تشكره ولكنه قطع عليها الطريق وتابع بخفوت وهو ينظر إليها بإشفاق:

- ماتخافيش كل حاجة هتبقى كويسة.. خليكي أقوى من كده.

أطرقت برأسها أرضًا وهي تبحث عن كلمات تشكره بها، ولكن حروفها تعثرت كعادتها وخذلتها، فأطبقت شفتيها بقوة، وتركت لدمعها العنان لعله يخبره بدلًا عنها.

****

في طريق العودة إلى الإسكندرية كانت مخذولة، تكفكف دمعها وهي تستمع إلى سيل الكلمات الحارقة التي تسيل من فم والدها بلا توقف، حتى أنقذها هاتفه من شذره المتطاير، وانشغل بمحدثه طويلًا وتركها تستند إلى ظهر مقعدها في السيارة بجواره وتلتفت إلى الطريق وكثبان رماله المتلاحقة.

أغلقت عينيها حزنًا، وللعجب، وجدت ابتسامة صغيرة ترتسم على شفتيها وتغزوها رغمًا عنها، عندما تذكرت آخرعبارة همس بها بهدوء بالقرب منها، قبل أن ترحل بصحبة والدها: "معلش بقى تليفوني كان ضايع فاضطريت أرن عليه من موبايلك. لو لقيتي رقم غريب في سجل المكالمات عندك إعرفي إنه رقمي".

زحفت أصابعها بعفوية داخل حقيبتها الموضوعة على قدميها، وتلمست بداخلها كرة كريستالية صغيرة، وتذكرته وهو يعلقها بسلسلة مفاتيحها الخاصة دون أن ينتظر إذنًا منها قائلًا "مش عاوزك تشكريني عاوزك تقبلي الهدية البسيطة دي". وعندما نظرت إليها بتردد في قبضته، وهو يمد يده بها، وضعها بداخل راحتها وتابع: "دي تذكار بسيط يفكرك بيا..أقولك.. اعتبريها مراية كل ما تحبي تشوفي حبيبة من جوة بصي فيها". حاولت أن تتذكر الاسم الغريب الذي أطلقه على هديته تلك، ولكنه تبخر من رأسها تمامًا.

يبدو أن صديقه الطبيب كان محقًا..إنه مشاغب، بل ومزعج. ولكن خلفه سرًا ما، وإن لم يكن لديها حاجه ملحة في معرفته الآن؛ فليبق السر سرًا .

* * *

- 5 -

أمام ضراوة صفعات الدنيا، لا نتألم كثيرًا من صفعات كفوف المقربين، إنما هي فقط تجعلنا نرتد إلى الخلف مبتعدين، في الوقت الذي نتمنى فيه الاقتراب منهم أكثر، نتمنى لو نرتمي في أحضانهم، تحتوينا صدورهم وقلوبهم وهمساتهم الداعمة. لذلك، لم تؤلمها الصفعة التي هوت ببعض الضعف مرتطمة بوجنتها، بل ما آلمها حقًا أنها لم تجد متسعًا لها في حضن والدتها. ترقرق الدمع بعينيها وهي ترى خيوط الغضب منسدلة من عيني أمها، وهي تجذب حقيبتها المعلقة بيدها بقوة، وتفتحها لتتناول هاتفها المحمول وتشد عليه قبضتها صائحة بغضب:

- لا دخول ولا خروج ولا حتى تليفونك هيفضل معاكي.. أنا عمري ما كنت أتصور إن بنتي أنا.. بنت "فريدة" هانم، تروح تجري ورا صعلوك زي ده.. اتفضلي على أوضتك مش عاوزه أشوف وشك.

أخفت وجهها خلف راحتيها، وهي تسرع نحو غرفتها بخطوات تقترب إلى الركض، لا تعلم هل تخفي دمعها أم تتأكد أنها قد صُفعت بالفعل. آوت إلى غرفتها وأسرعت إلى فراشها.. أغمضت عينيها وهي تبلل شفتيها بحرقة وألم، تشعر بأنها تغلق عينيها على أشواك تنغزها بين جفنيها بلا توقف، وآلام عظامها تنخر مفاصلها بقوة طالبة بعض الراحة والسكينة بعد كل ما مرت

به. ولم لا؟ قد يكون النوم أفضل سُبل الهرب المريحة لذلك القلب المنهك والجسد المتهالك،الذي كاد أن ينتهك .

****

كادت أن تصبح في عزلة تامة، لولا أن أسرعت بها الأيام واقتربت مواعيد اختبارات الجامعة، فبدأت تتواصل مع إحدى صديقاتها المقربات عن طريق الهاتف الأرضي،وانغمست بين دفَّات كُتبها، خائضة في مضمارها، واضعة كرة الكريستال أمامها دومًا، تنظر إليها بابتسامة من حين لآخر، فتنعكس صورتها فوقها، متناسية ما حدث لها في تلك المدينة القاهرة لها، وما تبعها بعد ذلك في الإسكندرية ممن حولها، في محاولة لأن تطوي ذكرياتها طيًا غير مزعج، لا يترك خلفه آثارًا واضحة على شخصيتها،التي تميل إلى البساطة والتصالح مع الذات ومع من حولها. ولقد ساعدتها ذاكرتها سريعة النسيان على ذلك، معلقة سلسلة مفاتيحها دومًا بسبابتها، لتجعلها متدلية بداخل راحتها،التي كلما لامست هديته الصغيرة تقبض عليها كمن يتحسس سلاحه كلما شعُر بالخطر.

في نهاية آخر أيام الاختبارات، وقفت بصحبة صديقتها وقد استندت إلى سيارتها الحمراء وقالت بسعادة:

- مش مصدقة إننا خلصنا امتحانات.

رفعت "حبيبة" نظارتها الشمسية وهي تلتفت إليها مصححةً:

- قصدك خلصنا الكلية خلاص.

فرقعت صديقتها بإصبعيها وهي تقول بمرح:

- وبالمناسبة الحلوة دي هافسحك فسحة النهارده عمرك ما حلمتي بيها.

أنهت عبارتها وهي تفتح حقيبتها مستطردة:

- هي فلوس أبوكي دي مش هتخلي عندها دم وتجيبلك عربية؟ يالا اركبي على ما أشوف مين بيتصل.

مطت "حبيبة" شفتيها بعدم رضا، وهي تلوح بيدها بضجر قائلة:

- قلتلك قبل كده مليون مره مابحبش السواقة.. أعصابي خفيفة. وبعدين مالها يعني التاكسيات؟

أشارت إلى "حبيبة" وهي تقول بدهشة:

- إستني دي مامتك. هو انتِ موبايلك مش معاكي برضه!

زاغت نظراتهالا تعلم بماذا تجيب،فصمتت وهي تستمع إلى صديقتها تحدث والدتها لثوان، ثم تناولت الهاتف من يدها ووضعته على أذنها بارتباك قائلة:

- أيوة يا ماما..

صمتت قليلًا تستمع إلى كلام والدتها، وما بين حاجبيها يضيق أكثر فأكثر،ثم قالت بخفوت حائرة:

- فجأة كدة.. طب ليه؟

لم تجبها والدتها إجابة شافية، فأومات برأسها بدهشة واضطراب وهي تقول:

- حاضر يا ماما ربع ساعة وهاكون عندك.

أنهت الحديث مع والدتها، ومدت يدها بالهاتف إلى صديقتها وهي تنازع الحيرة والدهشة قائلة ببطء:

- ماما عاوزاني حالًا يا " ندى".

مطت " ندى" شفتيها قائلة:

- ليه في حاجة؟

نظرت لها نظرة طويلة حائرة، ثم قالت غير مصدقة:

- فجأة كدة قرروا إننا نسيب إسكندرية!

****

عادت إلى منزلها لتجمع أشياءها، وهي لا تعلم ماذا تفعل. فبرغم أن تلك الغرفة شاهدة على ذكريات أليمة، إلا أنها تعني الكثير لها، ففيها عاشت أحلامها بمستقبلها، وهذا المكتب الصغير الذي كانت تجلس خلفه تدون الأحداث الغريبة التي تمر بها، والمشاعر غير المفهومة التي تشعر بها أحيانًا. كانت تود لو تحمل معها تلك الغرفة الوردية بكل تفاصيلها إلى القاهرة، فكل زاوية فيها شاهدة على أيامها. ولكن منذ متى وأحد يستجيب لطلباتها أو يشعر بما تحتاجه؟

تذكرت حديثها الواهي مع صديقتها " ندى" منذ قليل عن السيارة. إنه نفس المبرر الذي تقوله للجميع عندما يسألونها لماذا لا تمتلك واحدة، وهي من هي.بالفعل ليس لديها قوة أعصاب تؤهلها للقيادة، ولكن ليس هذا هو السبب الوحيد.

وقفت في منتصف الغرفة حائرة، تنظر إلى الدُمى المتراكمة فوق فراشها. إنها جميعًا مفضلة لديها، فلكل دُمية منهم ذكرى جميلة مع إحدى صديقاتها في مناسبات مختلفة. حاولت كبح جماح رغبتها في جمع المزيد منها، فأوامر والدتها كانت محددة وواضحة، والتوتر والعصبية هما السائدان بين أرجاء المنزل.

لم تتبين الكثير عن الأسباب لهذه النقلة الكبيرة غير المتوقعة على الإطلاق؛ ولكنها علمت أهم سببًا رئيسيًا لما يحدث.. إنها تلك الأزمة المالية التي عصفت

بأركان عمل أبيها وهزت سمعته كرجل أعمال بارز، وبدأت الديون تلاحقه يومًا بعد الآخر، هو وزوج ابنته وشريكه في كل شيء، مما اضطره إلى اللجوء إلى مكان آخر يستطيع فيه أن يتوازن من جديد ويرمم تلك الصدوع، كما نصحه الكثير من أصدقائه في القاهرة، بل وعرضوا عليه فتح آفاق جديدة له هناك بجوارهم. ولحسن الحظ،فهو يمتلك هناك بيتًا جيدًا في مكان راقٍ، جمع عائلته بالكامل ورحل إليه.

عادت إلى القاهرة للمرة الثالثة، وقلبها يرجف. ياترى ماذا تخبئين لي هذه المرة أيتها الظالمة؟ تركت مدينتي وذكرياتي وأحب الأماكن إلى قلبي وأتيتك وأنتِ التي شاهدت فيكِ ما شاهدت، وكرهت فيكِ ما كرهت.

إنها نفس الأعمدة المتلاحقة، نفس الصحراء وكثبان الرمال المتطايرة.. إنه نفس الطريق الذي سقيته من قبل بدموعي ذهابًا، وعدتُ منه بنصف قلب ونصف عقل، وحلم تجسد أمامي وأصبح حقيقة؛ فإلى أين تأخذينني هذه المرة؟!.

مرت السيارة بمطب صناعي، فارتجت قليلًا في جلستها ودارت الكريستالة دورة كاملة في طريقها إلى مغادرة راحتها، فقبضت عليها على الفوروضمت يدها إلى صدرها، فهمست تسألها "سلمى" التي كانت تجلس بجوارها:

- مالك يا "حبيبة"؟

حركت رأسها مطمئنةً إياها وهي تقول بهمس شارد:

- مافيش.

ربما تكون قد أحبت هذا المنزل الجديد عليها، وربما كانت ستحبه أكثر لو لم يكن يقبع في تلك المدينة التي لا تنام. المنزل مكون من ثلاثة طوابق، تحيطه حديقة من ثلاث جهات، جهز الطابق الأول للشركة الجديدة التي سيعيد من

خلالها والدها أمجاده وثروته، والثاني لـ"نشوى" و"راغب"، أما الطابق الثالث فستقطن فيه مع والدتها ووالدها وأختها الصغرى "سلمى"،التي حصلت على التقدير التي كانت تتمناه وتحلم به في المرحلة الثانوية،فلم يكن يشغلها كثيرًا أمر انتقالهم إلى القاهرة، بل كل ما يشغلها هو كلية "صيدلة" وفقط، فلقد حققت حلمها بالالتحاق بها، ولا يعنيها بعد ذلك أي شيء.

****

" الرقم الذي طلبته ربما يكون مغلقًا أو غير متاح"

زفر بقوة، وهو يطرق بأصابعه في ضيق شديد على سطح الطاولة،التي يستند إليها بمرفقيه. كانت تلك إحدى محاولاته الفاشلة في الاتصال بها طوال الشهور الماضية، لا يعلم هل قررت أن تغلق هاتفها أو استبدلت شريحتها بأخرى. لماذا حرمته من التواصل معها، هل ظنت به سوءًا أم قررت هجر الرجال جميعًا؟ لو كان بيده، لما انتظر كل هذه المدة بعيدًا عنها، إلا أنه اضطر إلى السفر لاستكمال مشروعه الخاص، مصطحبًا معه طيفًا يمر به كلما شرد بعيدًا،وصورة لها كان قد رسمها بيده منذ عام تقريبًا.. منذ أول لقاء لهما، تحت سطح الماء!

أرسل تنهيدة حارة وهو يضع الهاتف فوق الطاولة متمتمًا بحيرة:

- برضه مغلق!

شعر بمن وضع يده على كتفه من الخلف ممازحًا:

- هو مين ده اللي مغلق؟

التفت "حسام" إلى مُحدثه بضجر واضح قائلًا:

- مالكش دعوة يا عم "خالد".

اقتربت منهما برزانة ووقار، وجذبت أحد المقاعد حول الطاولة لتجلس ببطء وهي تقول باستنكار شديد:

- كل اللي يسألك تقول له مالكش دعوة حتى " خالد " كمان.. لا ده انت حالتك بقت صعبة أوي يا "حسام".

جلس "خالد" وهو يقول بشغف:

- إيه ده.. ده الموضوع بجد بقى.. يعني عمتو ليها حق تشتكيلي منك!

نظر "حسام" إليه وعقب مستنكرًا:

- بقى في راجل يقول عمتو، سبت إيه للبنات؟

ضحك "خالد" بجذل وقال وهو يلوح بيديه:

- انت فاكرني شوارعي زيك ولا إيه يا فان دام؟

زفر للمرة الثانية وهو يضرب راحته بقبضته الأخرى، موجهًا حديثه إلى والدته:

- عاجبك كده؟مالقتيش غير الهايف ده وتشتكيني ليه؟

أسندت ذقنها إلى قبضتها وهي تنظر إليه متفحصة:

- أعمل لك إيه حالك مش عاجبني من ساعة ما رجعت من السفر وبدأت مشروع الجيم بتاعك.. وبعدين ده ابن خالك وصاحبك هو أنا اشتكيتك لحد غريب؟

تناول"خالد" الهاتف من أمام "حسام"، وأخذ يبحث فيه بفضول وهو يقول:

- ولا اشتكيتك ليا ولا حاجة يا وَحش.. عمتو بس شايفاك بالك مشغول وعاوزه تطمن عليك مش أكتر.

جذب "حسام" الهاتف، وتناول سلسلة مفاتيحه، ونهض وهو يلقي عبارته الأخيرة قبل أن يغادر:

- ولا بالي مشغول ولا حاجة.اتطمنوا.. أنا رايح الجيم.

استوقفه "خالد" قائلًا بضيق:

- كمان ناسي معادنا النهارده؟

عقد "حسام" بين حاجبيه محاولًا التذكر، فزفر "خالد" وقال حانقًا:

- هو أنا مش قلتلك إني معجب بواحدة وحددت معاد مع أهلها علشان أتقدملها؟

ابتسم "حسام" ساخرًا وقال:

- وأنا هافتكر مين ولا مين ما أنت كل يوم تطلعلنا في الموال ده مع كل واحدة شوية وفي الآخر بتفركش.

تدخلت والدته في الحديث قائلة بثقة:

- لا المرة دي شكله مصمم بجد.

هز رأسه يمنة ويسرة متعجبًا، وقال وهو يقطع الممر إلى باب الشقة:

- يا ماما هو انتِ مابتحرميش؟ كل مره يضحك عليكي كده وبعدين ترجعي تقولي مش هادخل له في حاجه تاني وبرضه بتدخلي، مافيش فايدة.

خرج وتركهما، وقبل أن يغلق الباب خلفه وجد "خالد" يتمسك بمقبض الباب من الداخل ليبقه مفتوحا، واشرأب برأسه للخارج وهو يغمز بإحدى عينيه بمكر:

- مين دي اللي شغلت "حسام الصياد" بجلالة قدره للدرجة دي؟

ابتسم "حسام" ابتسامة واسعة، قطعها سريعًا وهو يدفع رأس "خالد" للداخل قائلا:

- يا أخي ده إنت غتيت أوي.

أغلق الباب، وانطلق وقد عزم على قطع تلك المسافات اللعينة التي تفصل مدينتهما عن بعضهما البعض، بينما عاد "خالد" في الداخل حيث كانت تنتظره عمته بحيرة بالغة. وما إن اقترب منها حتى نهضت قائلة:

- مش قلتلك يا "خالد" حاله عجيب اليومين دول؟

جلس "خالد" مرة أخرى، وتناول ثمرة تفاح من على الطاولة وقضم قطعة منها وهو يقول ببساطة:

- بكره هاعرفلك ماله بالظبط يا عمتو، مش هيقدر يخبي عني كتير ما انتِ عارفة أنا كاتم أسراره اتطمني.. المهم بس ياله استعدي معادنا مع الناس قرب.

رفعت حاجبيها باستنكار وهي تنظر إليه وهو يأكل، ثم قالت معترضة:

- أنا مش قلت قبل كده التفاح يتقطع بالسكينة.. بتاكل كده ليه؟

ضحك بشدة، بينما توجهت هي إلى الداخل قائلة بتقزز:

- أنت و"حسام" هتجيبولي الضغط.

لم يستطع أن يتوقف عن الضحك، بعد أن رأى التقزز على وجهها، ثم انتقل إلى غرفة المعيشة وجلس يشاهد التلفاز،وما هي إلا لحظات ووجدها تخرج منفعلة بشدة، ممسكة بهاتفها وتصيح بغضب:

- شايف عمايله يا " خالد " باعتلي رسالة، حاولت أتصل بيه بعدها لقيته قفل تليفونه.

اعتدل "خالد" باهتمام وقال متسائلًا:

- رسالة إيه؟

- بيقول مسافر إسكندرية يومين!

****

قضى نحو أسبوعين بالإسكندرية، في رحلة تقصي وجمع معلومات بشكل متواصل، حتى استطاع أن يجمع ما كان كافيًا جدًا لإسعاده، فلقد جاء ينوي حرق تلك المسافات التي تفصلهما، ولكنه تفاجأ بأنها هي من سبقته وانتقلت إلى القاهرة منذ أسابيع قليلة، واستقرت بها. لقد ذابت المسافات تلقائيا إذن، ولم يبق إلا القليل الذي سيذيبه بطريقته الخاصة!

قطع الطريق مرة أخرى عائدًا من حيث جاء، يجاهد عقله في محاولة غير جادة للسيطرة على مشاعره وتقييد أفكاره الهاربة إليها، تاركة المساحة الكافية لفؤاده أن يبعثه أينما شاء، ويعيده متى أراد، مما جعله يعبث ببعض الاسطوانات المدمجة أمامه، واختار المسجل عليها بعض الأشعار المسموعة لنزار قباني، وبصوته فقط.

ابتسامة منتشية تحمل الكثير من النشوة واللهفة لاحت فوق شفتيه وهو يستمع إلى الكلمات،التي تنطق بما يجيش بصدره، وظل يتمتم خلفه مرددًا:

أشكوكِ للسماء..

كيف استطعتِ أن تختصري جميع ما في الأرض من نساء

أنا عنكِ ما أخبرتهم.. لكنهم لمحوكِ تغتسلين في أحداقي

أنا عنكِ ما كلمتهم.. لكنهم قرأوكِ في حبري وفي أوراقي

للحب رائحةٌ.. وليس بوسعها ألَّا تفوح مزارع الدُّراقِ

رغم توقف الأسطوانة،لم تتوقف شفتاه عن الابتسام معظم الطريق، حتى قطع ابتسامته ارتفاع رنين هاتفه. نظر للهاتف وشاشته المضيئة باسم "خالد" وأجابه بسعادة واضحة:

- "خالود" عامل إيه؟

التفت "خالد" إلى عمته بجواره في السيارة متعجبًا، ثم قال مازحًا:

- معلش يا فندم تقريبًا الرقم غلط. أصل اللي كنا عاوزين نكلمه واحد كئيب كده أعوذ بالله منه.

ضحك "حسام" ضحكات رنانة،سمعتها والدته الجالسة بجوار "خالد"، فابتسمت رغمًا عنها، بينما أردف "خالد" متسائلًا:

- أنت فين يابني؟ أخيرًا حنيت عليا ورديت؟

تنفس بقوة يملأ رئتيه بالهواء العابث بوجهه وبخصلاته، ثم قال:

- أنا راجع القاهرة انتم فين دلوقتي؟

ابتسم "خالد" بمرح:

- يادوب لسه واصلين تحت بيت خطيبتي، وقلنا نكلمك قبل ما نطلع.

رفع "حسام" حاجبيه وأجاب بدهشة بالغة:

- يا راجل! لحقت تبقى خطيبتك؟

مرر "خالد" أصابعه بين خصلات شعره وقال بغرور:

- طبعا يابني هو أنا حد يقدر يقول لي لاء؟

ثم تابع بقلق:

- المشكلة بس إنها لسه ماوافقتش، رغم إن أهلها موافقين جدا وقلت أروح النهارده أقعد معاها وأحاول أقنعها.

قال "حسام" ساخرًا:

- يعني العروسة لسه ماوافقتش وتقول خطيبتي! طب روح العب بعيد بقى.

عقد "خالد" حاجبيه، وقال وهو يترجل من السيارة ويدور حولها، ليفتح الباب لعمته وهو يقول بثقة:

- هتوافق.. هي هتروح مني فين. المهم بقى شد حيلك عاوزين نتجوز في يوم واحد، ولا السفرية دي راحت عليك أونطة؟

قال"حسام" بتفكير:

- لاا!.. أونطة إيه، خلاص كلها خطوة واحدة وهتسمع أخبار حلوة أوي.

جذبته عمته من ذراعه إلى الداخل، وأخذت الهاتف من يده ووضعته على أذنها وهي تقول على عجلة من أمرها:

- حمد لله على سلامتك يا حبيبي. لما تروح البيت ابقى طمنا انك وصلت.هاقفل دلوقتي، طالعين عند الناس.

أغلق الهاتف وواصل الطريق إلى منزله، صعد الدرج الكبير المؤدي إلى بوابة العقار من الخارج، وهو يبتسم لكل من يقابله،ابتداءً من حُراس العقار، مرورًا بالخادمة التي كادت أن تصطدم به على السُلم،الذي كان يسابق درجاته صعودًا، فهو –كعادته- لا يستقل المصعد إلا قليلًا، إلى أن استقر به المقام بداخل شقته. ألقى التحية على خادمتهم المنشغلة بأعمالها، ثم توجه إلى غرفته، فتح الخزانة الخاصة به، وأخرج صورتها المرسومة بيده، وجعل ينظر

إلى الصورة ويبتسم، تتراءى له فرحة مرتقبة، ثم تذكر كلمات والدته وهي توصيه بالاتصال بهما فور وصوله.

أضاءت شاشة الهاتف الخاص بـ"خالد" باسم "حسام" وصورته الشخصية، وقد كان موضوعًا على الطاولة الصغيرة أمامهما، وهو جالس على مقربة من فتاته، التي لم تتفوه بكلمة سوى بأنها غير مستعدة الآن للزواج أو الارتباط، ثم صمتت وكأنها تخبره رفضها بشكل لائق بهذا الصمت. التقط "خالد" الهاتف الذي تعلق نظرها به، وأجاب وهو ينظر إليها معتذرًا، تحدث إليه بكلمات مختصرة، ثم عاد إليها ملتفًا بجسده كله وهو يقول:

- آسف على المقاطعة.. كنا بنقول إيه؟

ابتلعت ريقها بصعوبة،ولم يلحظ هو اصفرار وجهها شحوبًا، بعد أن التقطت عيناها الصورة والاسم اللذين أضاءت بهما شاشة هاتفه، وقالت بارتباك:

- لا أبدًا مافيش حاجة.. كنت كمل كلام عادي مع صاحبك.

وجدها فرصة سانحة ليخرجها عن صمتها، وقال ببساطة:

- لاده راجل مبسوط بقى وبيحب، وماكنش هيبطل رغي.

صمتت مرة أخرى ولم تجبه، فقال وهو يحاول أن يختلق أي حديث بينهما:

- أهو صاحبى ده مأجل معاد جوازه بسببنا. يرضيكي يعني كده؟

رفعت رأسها إليه مقاومة غصة اختنق بها حلقها متسائلة:

- هو هيتجوز قريب؟

أجاب على الفور:

- آه طبعا.. بيحب وغرقان لشوشته بس مش عاوز يحدد معاد جوازه إلا لما إحنا نحدد الأول.

نهضت واقفة شاحبة الوجه مضطربة، فانفلتت مدلة عشقها من سبابتها وسقطت فوق الأرض الرخامية.انحنت نحوها على الفور ملتقطة إياها، واعتدلت وهي تضعها في راحتها،مقطبة جبينها وهي تنظر إلى ذاك الشرخ الصغير،الذي رسم خطا لليسار قليلًا. كان "خالد" قد نهض بدوره وهو ينظر إلى الكريستالة بيدها، ملاحظًا احمرار عينها الذي ينبئ عن دموع قادمة في الطريق، فقال محاولًا التخفيف عنها:

- ولا يهمك، بكره يكون عندك أحسن منها.

صمتت وعيناها مثبتتان براحتها، فحاول أن يضفي بعض المرح،ويعود إلى حديثهما السابق، فتابع بإصرار:

- أنا مش عارف انتِ مترددة ليه، إديني فرصة وأوعدك إنك مش هتندمي يا "حبيبة"!

* * *

- 6 -

طرقات منغمة على باب غرفته من الخارج، جعلته يبتسم ويهتف بسأم مصطنع:

- ادخل يا رخم.

فُتح الباب، ودلف "خالد" إلى الداخل برأسه فقط مداعبًا:

- سالخير.

تبسم "حسام" ضاحكًا وهو يعتدل فوق فراشه جالسًا، ويشير إليه بالدخول قائلًا:

- سالنور يا لذيذ.. تعال.

أغلق "خالد" الباب خلفه، وصاح مرحًا وهو يفتح ذراعيه عن آخرهما:

- وأخيرًا العاشق الولهان هيعترف.

عاد بظهره إلى الوراء، واستلقى بهدوء وأمسك وسادته،التي يحب أن يضعها دائما فوق رأسه أثناء نومه، وقال محذرًا:

- لو مااتكلمتش على طول هاسيبك وأنام.

اقترب "خالد" وجلس بجواره بطرف الفراش، وهو يحرك رأسه متعجبًا:

- من إمتى بتخبي عليا يا "حسام" .. قال وأنا اللي جاي أفرحك.

اعتدل مرة أخرى جالسًا وقال وهو يشير بسبابته متسائلًا:

- اوعى تقول العروسة وافقت عليك؟

هندم "خالد" ملابسه بغرور وهو يقول:

- طبعا وافقت هي كانت تقدر ترفض؟ هو أنا شوية في البلد ولا إيه؟

ثم ضرب جبينه بحماس مردفًا:

- أيووه يا جدع.

رفع "حسام" حاجبية معقبًا في سرعة:

- إيه ده؟ هي العروسة إسكندرانية برضه؟

التفت إليه "خالد" بجسده كله دفعة واحدة صائحًا:

- وقعت بلسانك يا وحش.. معنى كده إن اللي مطيرة النوم من عينك إسكندرانية، صح؟

شرد بذهنه في الفراغ المقابل له، وتمتم بابتسامة احتلت شفتيه عنوة:

- مطيرة النوم بس، دي مجنناني.

أمسك "خالد" بوجه "حسام"، وأداره إليه بحركة سريعة، وسعى إلى استجوابه على الفور قبل أن يتراجع:

- قول لي بسرعة عرفتها إزاي وفين وناوي معاها على إيه؟

أزاح "حسام" يده متأففًا قائلًا:

- كل اللي أقدر أقوله دلوقتي إنها سابت إسكندرية وجات هنا القاهرة.. أخدت عنوانها بالعافية من صاحبتها هناك، ومش هاقولك حاجة تانية إلا لما أقابلها الأول

ثم استدرج متسائلا:

- ها حددت معاد الخطوبة ولا لسه؟

زفر "خالد" بقوة وهو يعيد ذراعيه إلى الخلف ويستند إليهما، وقد ارتسمت الحيرة على وجهه وعلت قسماته قائلًا:

- أبوها مصمم على كتب كتاب مش خطوبة.

التفت إلى "حسام" عندما انتهى من عبارته، فوجده يحثه في متابعة الحديث فقال:

- عارف لما اتصلت به علشان أحدد معاه معاد أول مرة.. إداني معاد بعد يومين. ولما روحت قابلته لقيته عمل عليا تحريات وعرف عني كل حاجة..

عيلتي مين؟ شغلي إيه..؟ كل حاجة عني. وأول ما فاتحته في موضوع بنته وافق على طول ومن غير تردد، لا وكمان بعدها بقى هو اللي بيضغط عليها علشان توافق

ثم التفت إليه مرة أخرى:

- أبوها مادي أوي يا "حسام" بس أمك بقى مرتاحة لها لدرجة غريبة.

بتر عبارته واعتدل كأنه لُدغ في التو، ونظر إلى الباب فتنهد وعاد برأسه إلى "حسام" متابعًا بهمس:

- قصدي مامتك مرتاحة لها جدا ومتحمسة وبتقول لي مالكش دعوة بأهلها المهم هي.

أنهى عبارته وألقى بجسده إلى الفراش مسترخيًا مغمض العينين. واتسعت ابتسامة "حسام" وهو ينظر إلى حركات "خالد" متفحصًا. لن يكبر أبدًا، سيظل "خالد" هو "خالد" متهورا، تصرفاته صبيانية، مهما مضت به السنين.

لا يزال يخشى إغضاب عمته، ويحاول تنفيذ تعليماتها، حتى وإن لم تتوافق مع طبيعة شخصيته، من فرط حبه لها ولعنايتها به منذ أن كان في التاسعة عشر من عمره، في بيتها وبجوار ابنها، بعد غرق السفينة السياحية،التي راح ضحيتها والداه، وأخوه الأصغر، وأخت "حسام" الصغرى، "حنين"، والتي كانت تصغر "خالد" بثلاثة أعوام. "حنين"،التي اقتلعت من بين مثيلاتها من الزهرات المتفتحات اليافعات وفارقت الحياة، وفارقته! أخذت معها قلبه، وكاد أن يفقد عقله بعد علمه بما حدث للجميع، في تلك السفينة التي استقرت بمن كانوا على متنها في قاع البحر، وكانت ضمن من لم يعثروا على جثامينهم في القاع، رغم البحث المتواصل. لم تكن لخالد ابنة عمته فقط، بل كانت حلم الطفولة والصبا، وحجر الأساس الذي انهار،فتهاوت معه حياته وتطلعاته، بل وإيمانه أيضا؛ فحاول الانتحار. وبعدإنقاذه، حدثته عمته بأن المنتحر لا يدخل الجنة ، فعدل عن الفكرة، وظل يوميًا يتأمل السماء الصافية ويتخيل "حنين" ترتع بين طبقاتها فرحة سعيدة، بثوبها الأبيض كبياض الثلج، تنتظره ببستان جنتها. ولم لا، وهي من كانت ملاك العائلة،وقبل الحادث بستة أشهر فقط، أسدلت على شعرها وجسدها ما يخفي معالمه، وواظبت على الصلاة، ولم تُرَ بعد ذلك إلا ومصحفها بيدها أو بحقيبتها الصغيرة، وابتسامتها الصافية ترسم أجمل نقاء روحي بعينيها المشرقتين. تخيلها تنظر إليه نظرة عتاب طويلة، لمحاولته قتل نفسه، فيحرمهما اللقاء الأبدي، فعدل عن الفكرة نهائيًا، واحتفظ بحياته. ولكنه مع الوقت، بدأ يفقد الكثير في المقابل.

لم يشأ "حسام" أن يخرجه من تلك الحالة التي تنتابه على فترات متباعدة؛ فهو يعرف تلك النظرة جيدًا.

إنه الآن سابح مع ذكرياته.. هو الآن يذكر "حنين"، أخته الصغرى وملاكه البريء،وشقه الضائع بين الأمواج. حُرم حتى من دفن جثتها، بل حتى من إلقاء النظرة الأخيرة عليها قبل وداعها. روحه التي فارقته، ولم تعد إلا في تلك اللحظة الوهمية التي رأى فيها "حبيبة" تحت سطح الماء لأول مرة!

تشبهها كثيرًا.. ملامحها، صوتها، لغتها الجسدية، وبراءتها وربما سذاجتها أيضًا. لذلك منحها هدية تشبهها أيضًا، شفافةً لامعةً وسهلة التصدع.

أجفلاحينما دوت طرقات سريعة على باب الغرفة،انتشلتهما من بحر الذكريات.. من حنينهما! زفر "خالد" زفرة طويلة، بينما أجاب "حسام":

- ادخل.

أطلت الخادمة بجزء من جسدها وهي تقول بأدب:

- كابتن "حسام"، أستاذ "طارق" على التليفون.

أومأ برأسه، فخرجت في التو وأغلقت الباب خلفها بهدوء.اعتدل جالسًاورفع سماعة الهاتف الملحق بغرفته. لم يلتفت "طارق" إلى بحة الحزن بصوت صديقه،وتكلم مندفعًا كعادته قائلًا:

- انت فين يا "حسام" دايخ عليك بقالي كام يوم وماحدش عارفلك طريق وحضرتك قافل تليفونك وبتتفسح في اسكندرية ولا على بالك.

أغمض عينيه وزفر بقوة، فقد تملك منه الضيق أكثر وهو يجيبه:

- ما تهدا عليا شوية يا "طارق" في إيه مالك داخل زي القطر كده ليه؟

عاد إليه صياح "طارق" حانقًا:

- لا ولا حاجة.. بسيطة خالص.. كل الحكاية إن افتتاح الجيم بعد يومين وفيه أجهزة حضرتك لسة ماركبتهاش، والناس بيتصلوا يسألوا على تفاصيل أنا مش عارفها، والدنيا تضرب تقلب.. ها كده كويس ولا أقول كمان.. ده كان يوم منيل يوم ما فكرت أشاركك يا أخي.

ابتسم "حسام" رغمًا عنه، فهو عادة لا يخرج من إحدى حالات حزنه إلا بمشاكسة ما.قال بسخرية:

- إنت هتعمل فيها شريكي ولا إيه؟ ما كانوش 10% دول وواخدهم عافية كمان بعد ما قعدت تتحايل عليا؟

زمجر "طارق" مصطنعًا الغضب وقال:

- اسمع يابني إنت، أنا مستنيك في الجيم حالا تنط في الهدوم وتبقى عندي في ظرف دقايق... أنا محتاس يا "حسام".

وضع السماعة وقد وعده أن يكون أمامه بعد دقائق قليلة، وبالفعل لم تمر سوى عشر دقائق وكان في السيارة متجهًا إليه، وبداخله حروب ومنازعات يجيش بها صدره. لقد نسي أمر مشروعه كليًا منذ أن سافر للبحث عنها، والآن هو في ورطة حقيقة..الافتتاح بعد يومين، ولا يزال أمامه الكثير لإنجازه، وبعد الافتتاح سوف ينشغل أكثر، فحتى الآن لا يوجد مدرب معتمد غيره، والجميع يريد التدرب تحت يده. الجدول مزدحم بشدة، وفي نفس الوقت يريد أن يحاول الوصول إليها ليبدأ معها مشروعه الكبير والمصيري. هل من الممكن أن يؤجل اللقاء أيامًا ليست بالكثيرة، حتى يهدأ دوران الأرض من حوله قليلًا، فيذهب إليها وهو في فسحة من وقته، خالي الذهن؟، إنها أغلى عنده من أن يمنحها بعض عقله وبعض ساعاته.

****

وقف أمام "طارق" عاقدًا ذراعيه فوق صدره بابتسامة مرحة عالقة بين شفتيه. "طارق"،الذي كان متقمصًا دور المرشد،أخذ يشرح كل شيء عن المكان بحماس شديد، كتدريب له على حفظ جميع أسماء الأجهزة التي ذكرها له "حسام" سابقًا، وكيف يعمل كل جهاز منها، و"حسام" مستمتع بدور الضيف الثقيل الذي يسأل عن كل شيء وأيشيء، ويؤديه بإتقان. واسترسل "طارق" في الحديث يقول:

- الدور اللي تحت زي ما شُفنا كان للأجهزة والتمرينات، أما الدور ده بقى ساونا وتدليك، وطبعا الرجالة ليهم أيام ومواعيد محددة غير مواعيد الستات!

عض "حسام" شفتة السفلى ساخرًا متصنعًا الضيق وهو يقول:

- يا خسارة

قال "طارق" بجدية لا تتناسب مع المزاح الذي سبقها منذ لحظات:

- الدور ده بقى هيبقى للناس الهاي كلاس مش أي حد.. عاوزين بقى نسميه اسم يليق بيه.

ابتسم "حسام"، ثم تنفس بعمق وقال بعينين حالمتين:

- هيبقى اسمه "رُكن حبيبة".

عقد "طارق" حاجبيه وقال متسائلًا:

- رُكن حبيبة؟!.. إشمعنى؟

أجابة "حسام" وهو يتركه منصرفًا:

- وأنت مالك يا رخم؟

****

عشرة أيام فاصلة، تغيرت بعدها الحياة من النقيض إلى النقيض. في لحظة ما، وكأن الكون قد سكن مرهفًا آذانه لتلك الضربات القاسية التي أوجعت فؤاده.. وكأن البحر قد تجمد فجأة، لتحجر تلكما العينين.. وكأنه خشي أن يتحرك بأمواجه، فيثيرغضب تلك العروق النافرة المحتقنة، فيتلقى لكمة تُخرس هديره إلى الأبد.

كان الجميع يتحرك حوله مباركًا عقد القران، وهو مازال مذهولًا يضغط أضراسه، حتى كاد أن يهشمها دون وعي.. يقبض راحته بقوة وغضب، حتى هربت الدماء منهما، خشية أن يمزق أوردتها تحت جلده. إنها هي "حبيبة"!

تجلس إلى جوار"خالد"، تعلو شفتيها ابتسامة مرتعشة، لازالت عيناها تبرقان تكادان أن تُمطرا، وتكاد أظافرها أن تتآكل وتنسلخ من فرط عبثها القوي بها توترًا. لا تجد مسلكًا لريقها بداخل حلقها، وهي تنظر إليه نظرات مبهمة متسائلة، أو ربما حائرة.اقتربت والدته وجذبته من ذراعه، ناهرة إياه برفق وبصوت منخفض:

- اتأخرت كده ليه يا "حسام".. المأذون كتب الكتاب من بدري؟

نظر إليها وقد تركت عيناه العروس الحائرة، معلنًا لها تركها إلى الأبد، وأجاب وهو ينظر إلى الفراغ:

- دايما باجي متأخر يا ماما.

جذبته مرة أخرى، وسارت به باتجاه العروسين،وهو بجوارها كطفل ضاع من عائلته وفقد الطريق فجأة، وأظلم كل شيء من حوله، فلا يكاد يسمع، ولا يكاد يبصر، وبالجهد ينطق كلماته. تمتمت وهي تسير بجواره:

- يالا علشان تسلم على العروسة وتبارك لـ"خالد" .

كانت المرة الأولى التي يحتضن فيها "خالد" ببرود. المرة الأولى التي يشعر فيها أنه يريد أن يهشم وجهه، بل يحرق كل شيء حوله.

كان "خالد" يتحدث بحماس وهو ينظر له وكأنه شخص آخر. وكأن "خالد" قد انقسم إلى رجلين، أحدهما صديق عمره الذي لا يتورع عن أن يفتديه بحياته، والآخر رجل بغيض اختطف منه محبوبته لا يستحق سوى القتل.

عندما بسط كفه لمصافحتها، شعر بيدها تحرقه وهي تزحف في كفه ببطء ووجل. ضغط كفها بقوة آلمتها، وعتاب قتلها، وثارت لأجله خواطرها الراكدة.

يا إلهي! كيف أستطيع أن أرى الكلمات مرتسمة بأحداقه بوضوح هكذا؟! لماذا يعاتبني؟ لماذا ينعتني بالخائنة؟ بل أنت من ترك وتخلى، أنت من يحب أخرى، كما قيل لي.لاشيء على الإطلاق يدعوك لتلك النظرة الغاضبة،وكتابة تلك الكلمات القاتلة في عينيك. أرجوك ابتعد الآن، ولا تفسد عليّ يومي، كما أفسدت عليّ أحلامي.

لم تكن وحدها التي استطاعت أن تقرأ ما بعينيه. بل فوجئ هو الآخر بأنه يستطيع أيضًا. هي تدعي أنه لا يوجد بيننا ما يستدعي غضبي، بل ولا تعرف لماذا أنا غاضب، وتأمرني بالابتعاد.

تركها وابتعد سريعًا نحو باب القاعة، كدوامة تسرع باتجاه زورق، تريد أن تبتلعه. هدرت أمواجه بعنف، وزأرت وحوش غاباته وهو يفك ربطة عنقه بغضب وانفعال، خارجًا من القاعة. ولكن نداءً واحدًا فقط لم ولن يستطع يوما أن يتجاهله.

أقبلت والدته بابتسامة عريضة متسائلة بسعادة:

- رايح فين يا "حسام" عاوزاك في حاجة مهمة قوي.

أشاح بوجهه يخفي ما تلبس به من غضب وهو يقول:

- خارج أشم شوية هوا بره.

أدارته إلى جهة اليمين، وأشارت إشارة خفية إلى إحدى الطاولات غير البعيدة وهي تقول باهتمام مغلف بالفرحة:

- شايف البنت اللي زي القمر اللي قاعدة هناك دي؟

لم ينظر، لقد كان يحاول بذل أقصى ما في وسعه للسيطرة على انفعالاته بشتى الطرق، ولكن رغما عنه قال بعصبية:

- مالها يا ماما؟

فهمت والدته عصبيته بشكل آخر، وقالت بحزم:

- اسمع بقى يا "حسام" أنا كل ما أجيبلك عروسه تعمل لي فيها الشويتين دول؟ خلاص بقى كفاية، "خالد" اللي أصغر منك أهو اتجوز مش فاضل غيرك، والمرة دي هتوافق يعني هتوافق.

نظر إليها بملامح خاوية وجبين منعقد، فتابعت بنفس الحسم:

- البنت ممتازة يا "حسام"، أبوها لوا سابق في الجيش ومربيها على النظام والجدية، والنادي مابتروحوش إلا مع والدتها، وزي ما إنت شايف كده لبسها محتشم. وبعدين شخصيتها قوية والكل بيشكر فيها بصراحة، وأنا متأكدة إن أخلاقها هتعجبك..ها قلت إيه؟

عندما تندفع السهام إلى قلوبنا بلا رحمة، بأيدي من نحب، نفتح لها صدورنا بابتسامة رضا، ولا نحاول أن نتفاداها. فالموت هنا لن يكون بسبب النصل، سيتغلغل السهم في القلب، ليجده قد مات بالفعل قبل أن يصل إليه، وفقد قدرته على النبض، وسيبصر النصل لوحة رُسمت على الشغاف بدماء سوداء لحروف كلمة.. خيانة.

نظر إلى والدته نظرة استغاثة، يرجوها بها أن تكف عن الحديث، فهو الآن في لحظة ضياع كاملة، ربما يظلم بسببها إنسانة أخرى لا ذنب لها فيما حدث له. ظلت تتحدث وتضغط، وظل يستمع ويضيع أكثر كلما التفت إلى "خالد" وعروسه، الخائنة بلا خيانة، الحائرة بلا سبب. حتى كاد أن ينفجر، حين تنهدت والدته بشفقة وقالت بحنان:

- ماتخبيش عليا لو في واحدة تانية قول، أنا مش همانع.

ابتسم بمرارة، وحرك رأسه نفيًا، فاستطردت قائلة:

- يبقى تقول موافق وسيب الباقي عليا.

وبعد صمت طويل، اعتصر قلبه ألمًا. تطايرت فيه أحلامه من أمامه كأوراق الشجر في مهب الريح. نطق بحروف مبعثرة وعينين محتقنتين بالدم المندفع إليهما، محدقًا فيها قائلًا:

- موافق.

* * *

- 7 -

لم يستطع الذهاب إلى المنزل في تلك الليلة. كانت بداخله طاقة قصوى تدعوه لتحطيم كل ما يقابله. توجه إلى صالة الألعاب خاصته،اعتلى الدرج قفزًا، ونزع ملابسه بعنف، ثم جلس إلى أحد الأجهزة وأخذ يجذب الأثقال الحديدية بعنف،ويدفعها بشراسة، وصدره يعلو ويهبط بجنون، وصوت تصادم الحديد يدوي في الأرجاء. وأخيرًا، نفدت قواه تمامًا، فترك جسده يهوي إلى الأرض منهكًا بشدة. أغمض عينيه وهو يلهث بقوة، حتى استقر أخيرًا وهدأت أنفاسه، ثم راح في سُبات عميق رغمًا عنه.

أما هناك، أسفل منزلها، أوقف "خالد" سيارته، واعتدل ليصبح في مواجهتها وهو يقول معاتبًا:

- على فكره أنا زعلان منك.. من ساعة ما الفرح خلص وخرجنا سوا لحد دلوقتي مااتكلمتيش خالص.

قالت بارتباك:

- معلش، محتاجة وقت علشان أتعود عليك أكتر وأعرف أتكلم معاك.

سحب كفها وقربه من شفتيه، وقبله برقة وهو يراقب ملامح وجهها المضطرب قائلًا:

- أنا هاخليكي تاخدي عليا أسرع مما تتخيلي.

بيدها الأخرى أمسكت مقبض الباب وفتحته، وهي تسحب يدها الساكنة في راحته قائلة باضطراب:

- طيب أنا هاطلع بقى، أصلي مرهقة أوي وعاوزة أنام.

وقبل أن يعترض أو يتقدم أكثر، كانت قد ترجلت من السيارة، فلحق بها وسار بجوارها، حتى عبرا حديقة المنزل الصغيرة، ودلفا من البوابة الداخلية، فتقدمت هي وضغطت أزرار المصعد بتوتر شديد، متحاشية النظر إليه. حتى استقر المصعد أمامهما، وقبل أن تستقله، أحاط خصرها بذراعه، في محاولة أخيرة لتوديعها، ولكنها أبعدته برفق معتذرة، وهربت داخل المصعد، واضعة كلتا يديها على صدرها، في محاولة ضعيفة لتهدئة أنفاسها المتلاحقة.

بمجرد أن دلفت إلى المنزل، واجهت ابتسامة "أمل" العريضة، والتي تقول بحماس وفرحة حقيقية:

- ألف مبروك يا آنسة "حبيبة".

ربتت "حبيبة" على كتفها بابتسامة مرهقة قائلة:

- الله يبارك فيكِ يا "أمل" .

ثم تلفتت بعينيها في المكان متسائلةً:

- بابا وماما ناموا ولا إيه؟

أومأت "أمل" برأسها وهي تقول:

- أيوة "فريدة" هانم و"سليم" بيه ناموا، والآنسة "سلمى" في أوضتها.

ابتسمت بوهن، وهي تتركها متجهة إلى غرفتها. أغلقتها خلفها، وألقت بجسدها فوق فراشها.

أغمضت عينيها، بعد محاولة فاشلة للنهوض مرة أخرى لاستبدال ملابسها، وشعرت برعشة خفيفة تسري في أوصالها، عندما تذكرت محاولة "خالد" تقبيلها في الأسفل، وتذكرت عينيه الغاضبتين، عندما دفعته برفق. زفرت بقوة، لعلها تُطفئ تلك الشعلة المتقدة بصدرها، الساخطة على كل شيء، والتي تلهب عقلها وتلسع بألسنتها قلبها.

لماذا رضختُ لعائلتي، ووافقتُ على عقد قراني بهذه السرعة؟ لماذا أنا دائما طوع بنان الجميع، يتلاعبون بي كيف شاؤوا، يضعونني حيث أرادوا؟ لماذا لم أرفض من البداية؟ إلى متى سأظل مترددة وجبانة، لا أكادُ أحسمُ أمرًا،لا أعرفُ للمواجهة طريقًا؟

****

أمسك بمقبض باب غرفته، وقبل أن يديره، سمعها تناديه بغضب يعرف نبرته جيدًا في صوتها، فاستدار ببطء وهو يحمل سترته بإهمال خلف كتفه، وبوجه عابس أجاب:

- صباح الخير يا ماما.

قالت وهي تفرك كفيها بضيق:

- يابرودك يا أخي.. بقى أنا طول الليل عماله أتصل بيك وإنت ولا إنت هنا، لما حرقتلي أعصابي، وجاي تقول لي صباح الخير يا ماما؟

أغمض عينيه، وهو يزفر بقوة ويشيح بوجهه محاولًا إيقاف بعض الغليان الذي يسري بداخله والسيطرة على أعصابه، وهو يقول منفعلًا:

- هو أنا عيل صغير هتقلقي عليه؟

نظرت إليه بدهشة غير مستوعبة الطريقة التي يحدثها بها لأول مرة.اقتربت منه، ودفعته في ذراعه بقوة لا تتناسب مع رقتها، هاتفة في وجهه:

- اتكلم كويس يا ولد.. مش كفاية اختفيت من فرح "خالد" ومشيت وسبتنا من غير ما تقول لنا رايح فين.. مابقاش عندك أي إحساس بالمسئولية خالص للدرجة دي يا "حسام" ؟

دفع باب غرفته بعنف، ودلف للداخل وهو يصيح:

- هو في إيه بالظبط؟.. كل حاجه "خالد"، معندكيش غير "خالد".. لازم الكون كله يلف حواليه ويلبيله طلباته يا مدام "نور"؟

حدقت فيه مشدوهة مما ترى وتسمع.. إنه ليس في حالته الطبيعية أبدًا.. ربما يكون مخمورًا أو مخدرًا! سمعت وقع أقدام تقترب، ثم أطل وجه "خالد" الناعس عليهما، بشعره الأشعث،يقول وهو يفرك إحدى عينيه من أثر النوم:

- أنا سامع حد بيجيب سيرتي.. بتتخانقوا ليه عالصبح؟

لم يجد ردًا من كليهما، فتقدم بضع خطوات للداخل، ثم وجه سبابته باتجاه "حسام" وهو يقول معاتبا:

- كده برضه تسيبني وتمشي يوم فرحي.. قصرت رقبتي يا أخى قدام مراتي.

لم يعلم "خالد" أنه في كل كلمة ينطقها يضغط بقسوة على جرح مازال مفتوحا ينزف؛ لذلك انتفض متفاجئًاعندما وجده يصيح وهو يضرب سترته بشراسة فوق حافة فراشه قائلًا:

- أنا مش الكلب بتاعك علشان تفضل رابطني بسلسلة جانبك.. ولا أنت افتكرتني الجارد بتاعك بصحيح؟

أنهى عبارته وهو يستدير ويوجه حديثه لوالدته قائلا:

- لو سمحتِ يا ماما أنا جاي تعبان وعاوز أنام.

تبادلت أمه نظرات الحيرة مع "خالد"،الذي صمت تماما، فهو يعرف صديقه عندما يغضب،وهو الآن غاضب، وبشدة. أشار إليها برأسه وهو يضع راحته على كتفها يحثها على الخروج معه قائلًا:

- تعالي يا عمتو دلوقتي من فضلك سيبيه يرتاح شويه.

أغلق "خالد" الباب خلفهما، وسار بها حتى غرفة المعيشة. أجلسها وهو يتفحص وجهها محاولًا الاطمئنان عليها، ثم جلس بقربها متسائلًا:

- إيه الحكاية يا عمتو؟

التفتت إليه غير مصدقة ما حدث وقالت بعينين حائرتين:

- والله يابني منا عارفة ماله..أول مرة يكلمني كده!

ثم فكرت قليلا، وقبل أن تتكلم تراجعت عما يدور بخاطرها..

- لا مش معقول!

نظر إليها مستفهمًا، فقالت متسائلة:

- تفتكر يكون سهر ليلة امبارح مع حد بيشرب ولا بياخد مخدرات وشرب معاهم؟

هز "خالد" رأسه نافيًا بقوة وهو يجيبها دون تردد:

- لالا طبعا يا عمتو،"حسام" راجل رياضي وبيحافظ على نفسه جدا؛ إذا كنت أنا نفسي مابيرضاش ياخد منه.

بتر عبارته، عندما انتبه إلى عينيها المتسعتين عن آخرهما بذهول فقال موضحًاعلى الفور:

- لا يا عمتو ماتفهمنيش غلط أنا أقصد السجاير العاديه مابيرضاش ياخدها.

زفرت بقوة لتخرج كمية الانفعالات الكثيرة بداخل صدرها، ثم تمتمت:

- ربنا يهديه ويهديك.

تنفس الصعداء، وابتلع ريقة بصعوبة، فلقد كاد أن يُهلك نفسه بنفسهِ.أراد أن يدير دفة الحوار باتجاه آخر، فقال:

- باقول لك إيه يا عمتو إيه رأيك أعزم "حبيبة" تتغدا معانا هنا يوم الجمعة؟

ضحكت ساخرة وقالت:

- قصدك تفطر معانا؟

قطب حاجبيه بدون فهم فتابعت:

- يوم الجمعه رمضان يا "خالد".

رفع حاجبيه مندهشًا وهو يعبث بشعره قائلًا:

- والله.. بسرعة كده؟.. ولا حد قال لي!

****

لم يستطع أن يهرب إلى النوم، فكلما هرب إليه فر منه إلى غير رجعة. تأكل الغيرة قلبه، وتُعطي ما تبقى منه للندم، ليلوكه. في النهاية، حسم أمره، وخرج من غرفته يبحث عن والدته، التي -كعادتها في هذه الساعة- وجدها تجلس في الشرفة الكبيرة بجوار حوض الزهور، ذلك الحوض البني المُعطر بزهوره، رفيقها كلما حزنت أو طالت حيرتها في أمر ما، وكأنها تستجلب روح

صاحبه،الذي أتى به هدية لها،قبل أن يفارق الحياة بأيام. مازال يسمع صوت والده وهو يقول لها مبتسمًا بحب "كل ما تحسي إنك محتاجاني تعالي اقعدي هنا".

لمعت عيناه لذكرى والده.. لقد كان يتمنى أن يكون هو وزوجته مثل أبيه وأمه، متحابين إلى تلك الدرجة من القرب والحميمية.

كثيرًا ما كان يُعرب عن أحلامه تلك أمامهمابطريقة مشاكسة، مما يجعل والدته تنهض وهي تقول متأففة "الله يكون في عونها"، فيضحك والده ثم يضع راحته على قلبه ويقول مداعبًا "بالعكس.. ابنك ده يوم ما يحب هيتهدل على الآخر مايغركيش عضلاته ده من بره بس".

ابتسم عندما وصل لتلك المحطة من الذكريات، فأوقف قطارها عند هذا الحد وتقدم ببطء لينتشلها هي الأخرى من ماضيها. جلس على الأرض أسفل قدميها، وتناول كفيها بين راحتيه، وقبلهما معتذرًا وهو يقول:

- أنا آسف يا ماما أرجوكِ اعذريني.

خفضت رأسها إليه في صمت، وقرأت الندم وقد نحت حروفه بين جنبات ملامحه، ثم تنفست بعمق وقالت بهدوء:

- أسفك مقبول يا "حسام". عارف ليه؟.. لأني عارفة إن في حاجة كبيرة مخرجاك عن وعيك ومش هاضغط عليك تقولي إيه هي. لكن عارف لو طريقتك دي اتكررت معايا تاني هاعمل فيك إيه؟

قال على الفور:

- اعملي فيا اللي انتِ عاوزاه.. أقولك.. اضربيني بالشوز!

رغمًا عنها ضحكت لمداعبته وهي تكرر:

- بالشوز!

مط شفتيه واصطنع الحيرة وهو يقول مقلدًا صوت أبيه مداعبًا:

- مانا خفت أقول لك بالجزمة تزعلي يا "نون" وتقوليلي إيه الألفاظ دي؟

علت ضحكاتها الرقيقة أكثر، وهي تلتفت برأسها إلى إحدى الزهرات فتستنشقها بقوة وتقول مبتسمة بحب:

- لو ماعملتش كده وانت بتصالحني ماتبقاش ابن "مصطفى الصياد"؟

ابتسم برضا كبير وسعادة أكبر، فلقد جعلها تضحك أخيرًا، بعد أن كان سببًا في غضبها.قبل كفيها مرة أخرى وهو يقول:

- يعني خلاص راضي عني يا جميل؟

أمسكته من كتفيه وأجلسته على المقعد المقابل لها وهي تقول بتهمل:

- بشرط؟

أومأ برأسه مبتسمًا وقال بحماس:

- إنت تؤمر يا قمر.

قالت على الفور:

- إنت قلت لي امبارح إنك موافق تخطب "هدى".

رفع حاجبيه مستفهمًا، فقالت بانفعال:

- البنت اللي شاورتلك عليها في الفرح يا "حسام".. لحقت تنسى؟!.. ده أنا الصبح كلمت مامتها وحددت معاها معاد بكرة على أساس إنك ادتني كلمة امبارح.. ولاعاوز تصغرني مع الناس؟

مرر أصابعه بين شعره الغزير باضطراب وهو يقول بخفوت:

- آه افتكرت.

لم يكن أمامه مفر من الموافقة، فلقد وضعته بين المطرقة والسندان.وربما أراد أن يكبح جماح قلبه، ويجبره على نسيانها على طريقة وداوني بالتي كانت هي الداءُ!

****

"بهايم.. أنا مشغل عندي شوية بهايم"

نطق "سليم" والد "حبيبة" تلك العبارة، وهو يهوي إلى مقعده في شركته الصغيرة، ويضرب سطح مكتبه بغيظ شديد، مما جعل "راغب" يسأل مستفهمًا وهو يجلس على المقعد قبالته:

- في إيه بس يا باشا.. احكيلي وكل حاجة لها حل.

رفع "سليم" رأسه وقد احتقنت عيناه بشدة، وقال وهو يلوح بذراعيه منفعلًا:

- لما "خالد" اتصل بيا وطلب مني معاد وعرفت أنه جاي يطلب إيد "حبيبة،" بعثت اسأل واتطقس عنه وعن وضعه المالي.. شوية البهايم اللي مشغلهم قدمولي تقرير بيقولوا فيه إنه رجل أعمال وحيد أمه بعد أبوه وأخته ما ماتوا، وهو اللي ماسك كل الحسابات والفلوس، وهو اللي بيدير الشركة الكبيرة وكل حاجة في إيده، يعني كل الفلوس دي هتروحله بعد ما أمه كمان تموت، ده غير فلوسه هو اللي بيشغلها في السوق.

عقد "راغب" حاجبيه بعدم فهم وهو يقول:

- مش فاهم يا باشا اعذرني.

زفر "سليم " وقال حانقًا:

- البهوات كتبولي تقرير عن واحد تاني يا "راغب".. عن ابن عمته.

مال "راغب" برأسه يمينًا، وهو ينظر إليه غير مصدق، وقال متسائلًا:

- يعنى إيه؟.. "خالد" وضعه المالي إيه دلوقتي؟

عاد "سليم" بظهره يستند إلى ظهر مقعده، وأغمض عينيه قائلًا:

- كان عنده سنتر كبير رأس ماله مش بطال، ورثه من أبوه. وبعد كام سنة، صرف معظم فلوسه على الحريم والصرمحة، ودلوقتي مابقاش عنده غير شقة ومحلين في مول قريب من هنا.

ضرب " راغب" جبهته بقوة وهو يقول بحسرة:

- يعنى الفلوس بح؟

أشعل "سليم" لفافة تبغ، واستنشق بعض سمومها، ثم زفرها ببطء بعد أن ملأ بها رئتيه وقال وهو محدق في الفراغ:

- أحلامي في إني أرجع اسمي في السوق زي زمان هي اللي بقت بح.

****

حين أصرت والدة "حسام" على حضور "حبيبة" معهم للتعرف على "هدى" وأسرتها، اقترح "حسام" أن يذهبوا جميعا في سيارة واحدة، فلا داعي للتفرق في سيارتين، فقد يختلف بهم الطريق ويضيع أحدهما من الآخر، وخصيصًا أنهم سيذهبون إليهم للمرة الأولى..ربما أراد "حسام" أن ينعم باحتلال جسدها جزءًا من سيارته، ويملأ عبقها الأجواء حوله، ولو لوقت قصير.جلست خلفه مباشرة،تحمل ابتسامة خلابة.بدا له أنها هي أيضا سعيدة بذلك!

لم يستطع أن يمنع عينيه من النظر إليها في المرآة من وقت لآخر، يخطف بعض الثواني من عمرها، فيحتفظ بها في درج ذكرياته معها. لم تستطع هي أن تفسر تلك النظرات التي تختلط فيها السعادة بالعتاب، القسوة والحنان، الخيانة والإخلاص.. وبمجرد أن أوقف السيارة، ترجل على الفور، ليفتح لها

الباب. ابتسمت باضطراب شاكرة، ولكن تلك الابتسامة لم تدم كثيرًا، وخفق قلبها عندما سمعته يهمس لها بضيق:

- الفستان القصير ده مايتلبسش تاني.. فاهمة؟

ما هذا الكائن العجيب؟، من هو ليملي عليّ أوامره بتلك الجرأة؟ وأنا، كيف أسمح له؟!

ترجلت والدته من السيارة، في خفة تتناسب مع جسدها المعتدل، وكذلك "خالد" وهو يعاين المكان حوله متفحصًا، ويحرك رأسه بغرور مصطنع قائلًا:

- كويس، واضح إنهم بيحاولوا يبقوا في مستوانا؟

تعارف الجميع في الداخل، واجتمعت العائلتان في البهو الكبير من المنزل، وبعد فترة ليست بالقصيرة عاجلته والدته بطلب الزواج بشكل رسمي وواضح. كان من الظاهر قبول الأسرة به وترحابهم بشكل كبير، رغم نبرة الغرور التي تتحدث بها الأم، ورنة القوة والسطوة الظاهرة في حديث الأب، برغم أنه ترك الخدمة منذ سنوات، ولكنه مازال متشبثًابنياشينه وأوسمته وحديثه المتعالي.

الفتاة نفسها كانت هادئة، لا تتحدث كثيرًا، إلا إنها عندما تفعل لا تتردد في قول ما تريد. شخصية قوية تتسم بالجدية وربما الصرامة أحيانًا، محتشمة في ملابسها، عكس أختها الصغرى "سمر" المتحررة بشكل فج، في طريقتها وثوبها ونظراتها الجريئة وحديثها الناعم مع "حسام" بشكل خاص!.

لاحظت "حبيبة" تلك النظرات، والتقط سمعها تلك النعومة، فمررتها سريعًا على الرادار الأنثوي الخاص بها، لتخرج النتيجة في النهاية مغلفة بنظرة استهجان صارمة، وشراسة كانت من نصيب "سمر" طيلة الجلسة، والتي بادرتها هي الأخرى بنظرة أكثر حنقا، وكأن اللقاء تحول بينهما إلى مباراة لا تلحظها سوى عين خبير محترف، أو فلنقل.. صياد!

أثناء عودتهم في السيارة،قال "خالد" مقترحًا ميعاد الخطبة:

- إيه رأيكوا تبقى تاني يوم العيد مع عيد ميلاد "حبيبة"؟

وجدت الابتسامة الطريق أخيرًا إلى شفتيه وهو يقول ببطء:

- هي عيد ميلادها تاني يوم العيد؟

أجابته بخفوت:

- أيوة.

لا تعلم لماذا عقبت بعد ذلك قائلة:

- السنة اللي فاتت عملنا الحفلة على سفينة في النيل.

حدق بها في المرآة بشدة وتمتم مشدوهًا:

- إيه؟ في النيل؟ وتاني يوم العيد!

عقب "خالد" ضاحكًا:

- يعنى تخيل هي كانت بتحتفل بعيد ميلادها هنا على النيل في القاهرة، وأنت كنت بتغرق هناك في اسكندرية.

تشابكت أفكاره وتصارعت، حتى كادت أن تفتك ببعضها البعض. أما هي،فقد أحتقن وجهها واعتدلت في جلستها ببطء، تبادله التحديق والنظرات الذاهلة وتهمس مأخوذة:

- بيغرق؟!!

* * *

- 8 -

عندما يهمس القلم تنصت الأوراق، وتخفق للهيب الأحبار. نطق القلم بين أصابعها هامسًا بحيرتها "لابد من محادثته مباشرة، لأعرف كيف استطعت أن أراه في لحظة موت كتلك التي مررت بها تحت المياه. كنت أقنع نفسي أنه وهم، حتى تلك اللحظة التي تفاجأت فيها أنه كان يغرق بالفعل، ولكن في الإسكندرية!هل كان حلمًا أم حقيقة؟ يكاد رأسي ينفجر منذ أن رأيت الذهول بعينيه في السيارة. هناك شيءخفي، ولكن لا أعلم لماذا أخشى الحديث معه، بل أخشى النظر إلى عينيه. أشعر أنه يقرأ ما يدور بعقلي، وأزعم أنني أيضًا كذلك أستطيع قراءة أفكاره!.

تركت قلمها ينزلق من بين أصابعها راحلًا، ليسكن راقدًا بين دفتي مفكرتها الخاصة، ونهضت متباطئة وهي تعبث ببعض خصلات شعرها، واقفة أمام المرآة الكبيرة تفكر: ما فائدة المواجهة الآن، ومنذ متى وأنا أسعى لحل عقدة تقض مضجعي؟.. لمعت عيناها بإصرار، واعتدلت وقفتها.. لا،سأفعلها. لابد وأن أتغير لتتغير حياتي.. لابد من وضع النقاط فوق الحروف في كل أموري.. لن أخلف عهدي هذه المرة،وسأتحدث إليه؛ لا لشيء سوى أني فقط أريد أن أعرف ما الأمر، ليس إلا!.

معتادة هى على تراجعها تؤثر السلامة فى الابتعاد والسكوت دوماً ،هذه هي "حبيبة".. مرت الأيام ولم تفِ بعهدها. كلما اقتربت خطوة، تراجعت خطوات.. لم يؤرقها هذا، فهو ليس جديدا عليها. وصل بها الهروب لدرجة رفض كل دعوة من "نور" عمة "خالد" للإفطار في منزلهم، متحججة بحجج واهية، حتى شارف شهر رمضان على الانتهاء، وانشغلت "نور" بالاستعداد لخطبة"حسام"!، ورغم ذلك خشيت من صدفة اللقاء!،

****

استقلت "هدى" السيارة بجواره،حاملة ابتسامة صغيرة، بينما جلست أختها "سمر" بالمقعد الخلفي وهي تقول بمرح:

- معلش بقى هاركب معاكوا يا "حسام"، أصلي بحب العربيات العالية.

ابتسم لها باقتضاب، وهو يلقي إليها نظرة في المرآة مرحبًا، ثم ما لبث أن رفع حاجبيه مندهشًا، وقد لمحت خبرته الطويلة في عالم الفتيات رنة خاصة في حديثها، عندما تابعت قائلة:

- أنا أصلي بحب المغامرة قوي.

انطلق بسيارته ببطء، حتى يسمح لسيارة والدته أن تسبقه وتصبح في المقدمة. كانت والدته تصطحب معها والدة "هدى"، تاركة لهما المجال للحديث منفردين، ولكن "سمر" قاطعت ذلك وأصرت على مصاحبتهمافي سيارته. وفي الزحام،ابتعدت سيارة والدته قليلًا، ولمح "حسام" مراقبة "هدى" للطريق، محاولةً النفاذ ببصرها بين السيارات، فقال مطمئنًا لها:

- ماتقلقيش هما قدامنا أنا شايفهم.

التفتت إليه وهي تقول موضحة:

- أنا مش قلقانه، أنا بس مش عاوزه حد فينا يسبق التاني، المفروض نوصل مع بعض بالظبط.

- وليه المفروض نوصل مع بعض بالظبط؟

ابتسمت متعجبة وهي تقول:

- علشان دي الأصول في المواقف اللي زي دي.وبعدين علشان إحنا متفقين على كده ولازم كل حاجة تمشي مظبوط.

رفع حاجبيه وهو يهز رأسه بسخرية قائلا:

- آاااه... الأصول.. تصدقي ماكنتش واخد بالي؟

ثم أردف متسائلًا:

- بس إيه حكاية إنك عاوزه كل حاجة تمشي مظبوط دي؟

اندفعت "سمر" في الحديث قائلة بمرح:

- هي "هدى" أختي كده على طول لازم كل حاجة بمواعيد وبالثانية كمان ولازم كله يمشي مظبوط على الجدول، نسخة من بابا فاكرة نفسها في الجيش.

أنهت عبارتها وهي تضحك ساخرة،يشاركها "حسام" وهو ينظر أمامه للطريق متعجبًا،فقاطعتهما "هدى" حانقة:

- وهو النظام وحش يعني؟

تركهما تتعاركان بالكلمات، وكل منهما تحاول إبراز صحة منطقها، وتابع سيارة والدته التي توقفت إثر انغلاق إشارة المرور، فتوقف خلفها، لا يفصل بينهما سوى سيارة واحدة. وفي الجوار، توقفت سيارة حمراء حديثة، تستقلها فتاة حسناء، ألقى "حسام" نظرة عابرة إليها،حيث تنبعث منها أصوات الموسيقى

صاخبة، ثم عاد ببصره إلى الأمام مرة أخرى. وما هي إلا ثوان، وسمع صفيرا منغمًا أطلقته "سمر" الجالسة في الخلف ثم قالت:

- سيدي يا سيدي ده انت بتتعاكس علي؟

ثم تابعت موجهة حديثها إلى "هدى"،التي نظرت للسيارة الحمراء وفتاتها بفضول، عندما سمعت أختها تقول:

- الحقي يا "هدى" خطيبك بيتعاكس؟

لاحظت "هدى" أن الفتاة تنظر إليه بشغف، وقد رفعت نظارتها تجمع بها شعرها الثائر حول وجهها، ولا تبدي اهتماما بمن ينظرن إليها. زفرت بضيق مُعلقةً:

- تفاهة.

كان معلقًا نظارته الشمسية السوداء بين أزرار قميصه، فتناولها مرتديًا إياها فوق عينيه وهو يقول بلا مبالاة:

- لازم تتعودي على كده، ده العادي أصلًا.

تجاهلت "هدى" حديثه،الذي أنبأها بأنه سعيد بتلك المعاكسات، بل ومغرور بها أيضًا. وعندما بدأت السيارات بالحركة سألته:

- هو إنت لبسك جينز كده على طول؟

ابتسم وهو يومئ برأسه مؤكدًا:

- أيوة، واحتمال ألبس جينز في خطوبتنا كمان.. إيه رأيك؟

ضحكت "سمر"، والتفتت "هدى" للاتجاه الآخر، تبحث عن سيارة والدته، وبداخلها شعور قوي أن من تقدم على الزواج منه مختلف تمامًا عنها، وتلك

الإشارات التي رأتها منذ أن استقلت السيارة بجواره ترجوها أن تتراجع.لقد شعرت بهذا من قبل، ولكن والدتها أقنعتها أن باستطاعتها أن تدير دفته لصالحها وتغير من شخصيته كما يحلو لها، إن تمتعت بالذكاء الكافي، فوافقت على الاستمرار، ونسيت أن من يحاول تغيير شخصية الآخر ليصبح نسخة كربونية أخرى منه، مقدم على الوقوع في بئر اليأس،الذي لا عودة منه، والذي ينتهي السقوط فيه بالارتطام الدامي حتمًا!.

****

مال "خالد" إلى الأمام وقد ظهر عليه علامات الوهن والضعف وهو يقول هامسًا:

- هي عمتي بتصلي التراويح ولا إيه؟ كل ده بتصلي المغرب! حرام أنا هموت من الجوع.

مال "حسام" إلى الأمام هو الآخر، متكئًا بمرفقيه فوق المائدة بيأس:

- تفتكر هانفطر قبل العشاء ولا بعدها؟

ضحكت وهي مقبلة عليهما بثياب الصلاة وتقول:

- أحسن..علشان بعد كده تقوموا تصلوا المغرب الأول.

جذب "حسام" طبق ورق العنب من يد "خالد" بقوة وهو يقول بلهفة:

- حمد الله على السلامة يا "نون" أنا قلت انتِ بقيتي من أولياء الله الصالحين وروحتي تصلي المغرب في الكعبة؟

تناولت كأس العصير بين أصابعها ساهمة النظرات، وهي تتذكر زوجها وهو يطعمها بيده بعض حبات التمر أولا، ثم يأخذها لصلاة المغرب خلفه، ثم

يعودان إلى المائدة مرة أخرى. عادت من ذكرياتها لتتابع الحديث الدائر بين "حسام" و"خالد" وهما يتناولان الطعام..

- شوف يا سيدي.. أول مرة شفتها كانت داخله المحل تدور على هدوم ماركة معينة.

ثم شرد بعيدًا وهو يتابع بصوت متهدج:

- أول ما شفتها حسيت اني شايف "حنين" الله يرحمها واقفه قدامي.

ترقرق الدمع بعيني " نور" وهي تردد:

- الله يرحمها.. فعلا "حبيبة" نسخة من "حنين"، ومش بس في الشكل.

تابع "حسام" ملامح الحزن البادية على وجه "خالد"،بينما يستطرد "خالد" قائلا:

- لقيت نفسي ماشي وراها مش عارف ليه لحد ما عرفت طريق بيتها.. راقبتها كام يوم وسألت عنها وعن أهلها لقيتها بنت كويسة.وفجأة طقت في دماغي فكرة الجواز، مش عارف ليه برضه!

نظرت له عمته وقالت بجدية معاتبة:

- معقوله يا "خالد"! يعني السبب الوحيد اللي خلاك تفكر تتجوزها انها شبه "حنين"؟!

ترك "خالد" المنشفة الصغيرة التي كان ينظف بها شفتيه من أثر الطعام، ونهض وهو يرسل تنهيدة حارة طويلة، ثم قال مغيرًا مجرى الحديث:

- المهم دلوقتي أنا هاعملها حفلة عيد ميلادها مع خطوبة "حسام" أعملوا حسابكم على كده.

****

وكأن اليوم يتكرر، وكأن العام الماضي قد أتى مرحبًا بها ثانية، مقدمًا لها ذكريات قريبة، كهدية يوم ميلادها. ولكن هذه المرة السفينة لم تغادر المرفأ!.

القاعة بداخل السفينة مزدحمة للغاية، والموسيقى الصاخبة تعلو من بين جنباتها. تسطع الأضواء بلونيها الأبيض والذهبي، ليكونا دائرتين مضيئتين، واحدة منهما مسلطة على العروسين "هدى وحسام" وأخرى في جزء آخر من القاعة، على "حبيبة" المبتسمة بخجل واضطراب، في محاولة لتحاشي الضوء،تتحدث مع "خالد" الذي جلس بجوارها فوق المقعد الأحمر الوثير.

وبعد بداية موسيقية صاخبة، هدأت الموسيقى قليلًا، وبدأ المصورون بالتقاط الصور الفوتوغرافية،فسطعت فلاشات العدسات،وطغت ابتسامة "هدى" المتعلقة بذراع "حسام" بيد، وباليد الأخرى ملوحةً إلى صديقاتها اللاتي يلتهمن بأعينهن خطيبها الواقف بجوارها بهدوء، يرتدي حُلته الكاملة وربطة العنق السوداء التي لا يطيقها كثيرًا، والتي تختلف اختلافا كبيرا مع شخصيته الجامحة.

وبعد قليل، أقبل المدعوون لتقديم التهنئة للعروسين، ثم دعتهما والدة "هدى" للجلوس في أريكتهما الخاصة المزينة بالتُل الأبيض من الجانبين،ولكن أقبل "سليم" يصافحهما، ثم تنحى بـ"حسام" جانبًا، ليحدثه في أمر هام.

مرت "نور" مبتسمة بجوار "سليم" و"حسام"، مرحبة برقتها المعهودة فبادلها "سليم" الابتسامة والتحية، ثم عاد يتحدث إلى "حسام" باهتمام شديد. أقبلت نحو "حبيبة وخالد" قائلة:

- يالا علشان تباركوا لـ"حسام وهدى".

تقدمتهما وهي تتحدث ملوحة بيديها برقةموجهة حديثها إلى "حبيبة":

- واضح أن باباكي يا "حبيبة" انسجم أوي مع "حسام".

ألقت "حبيبة" نظرة تجاههما، فوجدت والدها يميل برأسه باتجاه"حسام"، يتحدثان حديثا خاصًا جعلهما يبتعدان عن "هدى" ومن يحيطون بها. لم يكن من الصعب عليها في تلك اللحظة أن تتنبأ بما يدور بينهما؛ وقبل أن يقاطعونهما، صافحه والدها بابتسامة ممتنة، وهو يبتعد تاركًا المجال لابنته وزوجها ليقدما تهانيهما للعروسين.

احتضنه "خالد" بقوة مداعبًا وهو يقول:

- مبروك يا وحش.

اغتصب"حسام" ابتسامة صغيرة، وهو يمد يده لمصافحتها هي الأخرى وهي تقول:

- مبروك يا "حسام".

لم يستطع إلا أن يطيل النظر إلى عينيها، وكأنه يسبح في بحر مظلم يبحث فيه عن قارب للنجاة ويقول:

- متشكر.. وكل سنة وانتِ طيبة.

تنحنحت مضطربة، وهي ترجو يدها أن تنسحب من تلك المعركة الخاسرة بداخل قبضته، ثم اتخذت خطوة إلى اليسار لتجبره على تركها. قدمت تهنئتها إلى "هدى"، وقبلتها قبلة صغيرة، وتنحت جانبًا تبحث عن "خالد"،الذي اختفى فجأة من أمام ناظريها، بمجرد أن قدم تهنئته للعروس.

وقفت تبحث عن عائلتها، لعله لحق بهم، فوجدت والدتها تقف بجوار عمته ووالدة "هدى" يتبادلن أطراف الحديث.اقتربت منهن ووقفت مبتسمة بضجر،تستمع للحديث الذي كان يدور بينهن عن فخامة المكان وأناقته، فابتعدت قليلًا وهي تدندن بصوت خافت مع الموسيقى الهادئة،التي أضافت بعض الهدوء على المكان.

لماذا تشعر فوق هذه المياه بالوحدة والاضطراب، حتى وإن كانت نجمة الحفل؟ تود لو تبتعد عن الجميع وتلجأ إلى ركن قصي،وهذه المرة محاولة الهرب ستكون أكثر جدية، فهي تشعر بعينيه تحيطها من كل جانب.. هل يحميها، أم يراقبها؟

شعرت بيد توضع على ذراعها من الخلف، فاستدارت لتجد أمامها "راغب" زوج أختها "نشوى" مبتسما، وهو يمد يده بمرح إليها قائلا:

- إيه رأيك، بما إن انتِ زهقانة وأنا تايه، ما تيجي نرقص سوا؟

ابتسمت وهي تستجيب له على مضض. لم تكن المرة الأولى التي تشعر فيها بنظرات "راغب" الثاقبة لها، والتي لا تعيرها اهتماما في كثير من الأحيان.لكنه هذه المرة يتدخل فيها بشئونها الخاصة متسائلا:

- مبسوطة مع "خالد"؟

رفعت حاجبيها مندهشة وهي تقول:

- آه مبسوطة.. بتسأل ليه؟

حرك رأسه بلا مبالاة وهو يقول:

- لا أبدا مجرد سؤال أنا بس باطمن عليكي.

نظرت إليه بعناد وقالت:

- لا اتطمن "خالد" إنسان كويس قوي وبيحبني جدا.

تظاهر بالاقتناع وهو يقول:

- أكيد طبعا أنا متأكد إنه بيحبك.

ثم عقب مشككًا:

- وإلا ماكنش ساب كل الستات اللي كان بيعرفها واتجوزك.

تجاهل النظرات المتسائلة في عينيها وهو يردف:

- ياريتك كنتي ظهرتي في حياته من زمان يمكن كان حافظ على فلوسه اللي ضيعها على الستات دول؟

تمتمت غير مصدقة:

- ضيع فلوسه على الستات؟!

رسم التردد على وجهه بإتقان وهو يقول:

- إيه ده هو انتِ ماكنتيش تعرفي؟

خرجت من القاعة المغطاة إلى سطح السفينة المكشوف، تسير وحدها في شرود. كيف يكذب عليها ويقنعها بأنها أول فتاة بحياته، وأنها هي الأولى والأخيرة في قلبه؟ كم هي ساذجة، صدقته بالفعل!.. لماذا يكذبون جميعًا؟"شادي" ثم "خالد"، ومن أيضًا؟ جال "حسام" بخاطرها في تلك اللحظة، ووجدت نفسها تحرك رأسها نفيًا، وأرسلت تنهيدة حارة راجية.. لا تكن كاذب مثلهما!

اتجهت إلى الدرج المؤدي للطابق الأسفل،فوجدت "خالد" يصعد للأعلى بصحبة فتاة وهما يتضاحكان. تغير وجهه حينما رآها، وتوقف عن الحركة، بينما أكملت الفتاة طريقها بحرج بالغ، ومرت بجوار "حبيبة" تبتسم متوترة. تمالك نفسه سريعًا، وصعد ببطء حتى وقف أمامها، ثم ابتسم قائلًا:

- إيه رايحة على فين كده؟

عقدت ذراعيها فوق صدرها وهي تقول:

- باتمشى شوية.

اقترب منها وأحاط كتفيها بذراعه متسائلًا:

- مش هتسأليني مين اللي كانت معايا؟

أبعدت ذراعه عنها وهي تلتفت إليه مندهشة. ها هويستعد لتأليف كذبة جديدة، متخذًا طريقة الهجوم خير وسيلة للدفاع منهجًا لحياته. قالت على مهل:

- هاسأل على مين ولا مين.. واضح أن الموضوع كبير وأنا ماكنتش واخده بالي؟

عقد جبينه متفحصًا كلماتها المغلفة بالشك، والتي تنبئ عن معلومات قد وصلتها للتو.

دس كفيه في جيبى بنطاله، ورفع رأسه ينظر إليها برهة من الوقت في سكون، ثم قال بجدية:

- "حبيبة".. أنا عشت حياة صعبة أوي..أحيانًا كتير أنا نفسي ماباقدرش أفهم تصرفاتي. لكن كل اللي أقدر أقولهولك إني اتقدمتلك علشان عندي الرغبة اني أبدأ حياتي من جديد.. حياة نضيفة.

التفتت إليه تتأمل وجهه الشارد بعيدا، وعينيه الغارقتين في الحزن وهو يستطرد:

- ساعديني علشان أقدر أرجع "خالد" بتاع زمان.. انتِ بالنسبة لي الأمل اللي هيبقي قدامي دايما يفكرني بالنقاء اللي فقدته غصب عني واللي باحن له كل ما أشوفك.

تأملت عينيه الحزينة الشاردة،التي ألجمتها، ولم تستطع أن تفصح له عما سمعته عنه من "راغب" منذ قليل. وكأنها ترى صورة جديدة لـ"خالد"، لم ترها من قبل!

أومأت برأسها بتفهم، وهي تسحب يدها من بين يديه، وتبتسم ابتسامة خاوية. وتركته يخرج هاتفه ويجيب رنينه المتواصل،الذي قطع عليه حزنه وحديثه معها. عادت إليه الابتسامة وهو يتحدث إلى عمته في الهاتف، ثم أنهى محادثته وهو يضع الهاتف بجيب سترته، وقد استعاد مرحه أيضًا وهو يقول:

- عمتو قالبة علينا الدنيا تعالي ندخل نشوفها.

ابتعدت خطوات للخلف قائلة:

- لا عاوزه أشم هوا شوية، الدنيا جوه خنقة.. ادخل أنت .

كان كريما، فتركها تتخذ ركنًا بعيدا عن الصخب،الذي عاد مجددًا بعد أن دلف داخل القاعة.استندت براحتيها إلى حافة السور، وهي تنظر إلى مياه النيل وتفكر.. إنه رجل حزين للغاية، يصارع نفسه،ويتصرف عكس ما يؤمن به وما يريده، ربما بإرادته أو رغمًا عنه. هل يحاول تعويض نقص ما؟! عندما يسكب مشاعره أمامها ويخبرها كم يحبها، تشعر بصدقه. ولكن في نفس اللحظة، يراودها شعور بأن تلك الكلمات ليست لها! ترى كلماته تتجسد أمامها منسابة من بين شفتيه بتلقائية شديدة، وقبل أن تصل إليها تهرب بعيدًا.. تهرب لأخرى غير مرئية!.

لم ينادها، ولم تسمع خطواته الهادئة نحوها. ولكن شيئًا ما جعلها تلتفت. ربما شعرت بالدفء الذي تشعر به دومًا عند حضوره! هي المرة الأولى التي ينفرد بها.. وحدهما..منذ لقائهما في المشفى قبل أقل من عام.

هادرة هي أمواج البحر في عينيه. هل يضم العالم إلى صدره، أم فقط يعقد ذراعيه؟! هل سمعت الآن زفرة، أم أراد حرقها برئتيه؟

- واقفة لوحدك ليه؟

هكذا أخرجها من شرودها فيه، ليُعيدها بكلماته الثلاث إليه.. قالت:

- ولا حاجة باشم هوا بعيد عن الدوشة.

ثم تساءلت بتمهل:

- وانت سايب الناس وجاي هنا ليه؟

بدون تفكير أجاب:

- بادور عليكي.

صمتت، لعلها تستعيد قدرتها على النطق مرة أخرى، أو يرحمها وينصرف. ولكنه لم يفعل.. أشاحت بوجهها بعيدًا، صمته ونظراته جعلا اللحظات تمر عليها كالدهر.

وأخيرًا قرر إطلاق سراحها وزفر بقوة وهو يستدير لينصرف قائلًا:

- يالا ادخلي جوة، الدنيا هنا برد عليكي.

بداخلها حيرة كبيرة وأسئلة متخبطة، لا يملك أحد الإجابة عليها سواه، والفرصة الآن سانحة أمامها، وربما لن تعوض ثانية، ولابد من اقتناصها سريعًا.

وعلى غير عادتها، تحرك لسانها ونادته قبل أن يسبقها التردد والرهبة، كما يحدث لها دومًا عند المواجهة:

- "حسام" ؟

هل نادتني؟! هل خرج اسمي من بين شفتيها بتلك الرقة؟ هل أرادت سحق أعصابي وجوارحي، فقررت أن تناديني؟! عاد إليها بجسده كله دفعة واحدة، وبلهفة كبيرة مجيبًا. فركت كفيها مضطربة وهي تسأله:

- لما "خالد" قال في العربية إنك كنت بتغرق السنة اللي فاتت في نفس يوم عيد ميلادي.. كنت في اسكندرية فعلًا، ولا هنا في القاهرة؟

اقترب منها خطوات دون أن يشعر، وهو يعقد جبينه بقوة متسائلًا:

- هتفرق إيه هنا ولا في اسكندرية؟

قالت بصوت أشبه بالبكاء:

- هتفرق كتير.. لأني يوم عيد ميلادي وقعت في المية وكنت باغرق..

ثم تابعت وكل خلجة من جسدها ترتعش:

- وشفتك تحت المية.. ورغم إنك كنت بتغرق أنقذتني.. وأنا كمان أنقذتك. لما فقت من الغيبوبة وعرفت إن راجل مراكبي هو اللي أنقذني قلت يبقى كنت باحلم.. وفضلت أقنع نفسي بكده لحد ما عرفت إنك كنت بتغرق فعلًا في نفس اليوم، لكن في اسكندرية.. طب إزاي؟

خطى آخر خطوة كانت تفصل بينهما وأمسكها من مرفقيها هاتفًا:

- وأنا كنت فاكره حلم.. أنا كمان شفتك تحت المية.. ورفعتك بإيدي، وشدتيني معاكي.. بس مش هنا.. في اسكندرية!

أنهى كلماته وهو يلتفت إلى المياه. قطب جبينه بشدة، حتى كاد حاجباه أن يلتقيا، وضغط مرفقيها أكثر دون وعي وقد لمعت عيناه متذكرًا..

- يوم الحادثة لما أخدوكي في عربية.. ماكنش عندي أي سبب يخليني أروح المكان ده..لقيت نفسي ماشي بالعربية، لحد ما شفت عربية سايبة الطريق السريع وبتدخل في الرمل. ماكنتش أعرف إنك جواها ولا حتى شفت إن في واحدة ركبت معاهم؛ لكن لقيت نفسي ماشي وراهم من غير سبب. لحد ما سمعت صوتك وانتِ بتصرخي،ضربت نار وجريوا.. شفتك واقعة على الأرض

حصل لي ذهول.. افتكرتك، وافتكرت ملامحك اللي شفتها تحت المية وأنا باغرق..

كان جسدها ينتفض بقوة بين يديه، وبدأت دموعها في الانهمار، وصدرها يعلو ويهبط بجنون، عندما نظر إليها متأملًا بعمق، وكأنه يستعد للقفز بداخل مقلتيها وهو يقول بصوت متهدج:

- أنا بقدر أقرا أفكارك واحس بالمكان اللي إنت موجوده فيه.. ومتأكد إن انتِ كمان كده.. إحنا في بينا ترابط قوي ومن نوع خاص جدًا يا "حبيبة". مش عارف حصل بيننا إمتى وإزاي، لكن حصل .. انتِ ماينفعش تبقي ملك حد غيري..انتِ بتاعتي.. الوضع ده لازم يتصلح.. وحالًا!

لقد كانت تخشى مواجهته هو، فكيف ستجاريه ويصبح عليها مواجهة الجميع؟ كيف ستواجه "خالد" بحبها لابن عمته وصديق عمره؟

كيف تستطيع تخيل تبعة ذلك عليه؟ كيف ستدافع عن نفسها عندما يتهمها بالخيانة؛ بل كيف ستستطيع بعدها النظر بعيني "نور"، دون أن تطرق خجلًا؟ وإن استطاعت كل هذا، كيف ستواجه عائلتها؟ كيف تشرح لهم الأمر؟ هل سيظل قلبها ينبض عندما تتفوه بذلك أمام والدها،الذي تشعر دائمًا بنظراته كسياط تجلدها بلا أسباب، فكيف عندما تقدم له سببًا مقنعًا لحرقها بقسوته؟!

* * *

- 9 -

ترك جسده يسقط بعنف فوق فراشه. كان غاضبًا جدًا، ثائرًا لأبعد حد.. لو كان غيرها من أغضبه هكذا، لبات ليلته يئن. أغمض عينيه لعله يهدأ قليلًا، لعله ينسى كلماتها الجارحة التي قذفتها بوجهه ودمعها منساب فوق وجنتيها. لقد رفضت حبه بشدة، واتهمته بالأنانية صراحة، وضغطت جرحه بقسوة: " كيف تبني سعادتك فوق حطام خالد وهدى بتلك البساطة؟" لم يكن يدري هل يعنفها، أم يربت على وجنتها لتهدأ.

ولكنه لم يفعل.. ظل ينظر إليها وهي تهتف بين يديه، معلنة أنه يهذي، وأن ما يقوله أوهام وتخيلات عقله المريض، وأنها تحب "خالد" ولا تريد فراقه. "كاذبة أنتِ يا حبيبتي وتعلمين"!، ولكنه لم يقو على منعها من المغادرة، وهي تحذره من أن يقربها بعد الآن. لقد كادت أن تسقط وهي تعدو بعيدًا، متعثرة بكذبها وترددها وضعفهاوحيها! لا مفر، سيبتعد كما أرادت، ولكن ستظل النار متقدة تحت الرماد.

****

مرت الأيام تلو الأيام، جاهد فيهانفسه ألا يلاقيها، متجنبًا أي مجلس أو مكان يجمعهما، بل ومتجنبًا سيرتها أيضًا. حاول أن يتقرب من خطيبته، ولكن في كل مرة يجد صدودًا منها، ومنه قبلها، وفي كل مرة كان يستمع إلى نفس العبارات

المكررة من والدته وهي تقول "بكره لما تبقى جوزها هتحس إنها بتحبك، أصلها خجولة شوية".

لم يكن يحتاج إلى تلك الكلمات، فهو لم يكن يبحث عن حبها بقدر ما يبحث عن دواء آخر يشفيه من علته الدائمة. ولهذا، لم يتوقف بحثه عند صدود "هدى" وفقط، فالمعجبات كثيرات حوله ينتظرن منه إشارة، عرف هذه وترك أخرى واستجاب لأخريات، وفي كل مرة يهتف قلبه هتافًا يتردد صداه بين أضلعه.. جربتُ الحب مرات عديدة، وفي كل مرة أحبك أنت!

****

كيف يدعي حبها وهو يفعل ما يفعل!، هكذا صرخ قلبها قبل عقلها متسائلًا غاضبًا، ورافضًا، وهي تستمع إلى الحديث الحانق المنساب من شفتي "نور". كيف يجرؤ على الخيانة بتلك البساطة؟ ولكن مهلًا! أي خيانة تلك التي تتحدث عنها، ألم تكذبه؟! ألم تحذره وتأمره بالابتعاد؟ فما بالها الآن غاضبة تريد الفتك به وقد علمت الحين بفتياته ومغامراته؟!

وفي النهاية، ألقت "نور" عليها قنبلتها الأخيرة، وهي تقول موجهة حديثها إلى "خالد" الجالس بجوارها:

- لا وجاي يقولي إنه حدد معاد فرحه خلاص واتفق مع "هدى"!

كان خالد يشعر بملل وهو يستمع إلى حديثها.ما المشكلة فيما تقول؟ إنه رجل ويحق له أكثر من هذا، ومادام لن يتزوج بإحداهن، فما الداعي للقلق إذن؟! تنهد وهو يضع قبضته أسفل ذقنه قائلًا:

- خلاص يا عمتو أهو هيتجوز وترتاحي من مشاكله.

زفرت بضيق ثم ضغطت جبينها قائلة:

- معاك حق.. يارب الجواز يصلحه ويرجعه زي الأول.

أرسل "خالد" تنهيدة حائرة وهو يقول متعجبًا:

- عارفه يا عمتو أنا اللي مضايقني بجد إني لما عرضت عليه يستنى شوية ونعمل فرحنا في نفس اليوم اتعصب ورفض بطريقة غريبة أوي.. مش عارف مش طايق نفسه كده ليه؟

لو كانا نظرا إليها في تلك اللحظة، لربما وجدا الإجابة حاضرة في عينيها. نهضت من مقعدها بالمطعم الذي كانوا يتناولون الغداء به متعللة بالحديث في الهاتف، وأخفت عينيها بخصلات شعرها المتدلية فوقهما، وابتعدت للخارج لتستطيع السيطرة على تلك الشلالات المتدفقة منهما.هكذا إذن يا "حسام"، تدعي حبي وملكيتي لك، وأنت تتقلب بين الفتيات والنساء غير عابئ! أوهكذا يكون الحب؟!،

كنت محقة حينما اتهمتك بالأنانية ودفعتك للخروج من حياتي.توقف أيها الدمع أرجوك، فما شأني أنا بما يفعل؟.. لا تقتلني كما قتلني هو وبعثر أشلائي بين حناياه.

****

في قاعة الزفاف هناك، تحركت عيناه سريعًا بين الحضور والمدعوين باحثًا عنها، فلقد راهن نفسه بالأمس أنها لن تأتي.ارتسمت ابتسامة جذلة بين شفتيه، وهو ينظر إلى باب القاعة وقد دلف منه والداها، ثم "راغب" وأختاها، ومن خلفهم "خالد" وحيدًا. هي ليست معه، غير معلقة بذراعه، أعطت فرصة أخرى لقلبه ليرقص طربًا وهو يستمع إلى والدتها، وهي تهنئ "هدى" بالزواج ثم تقول معقبة "معلش حبيبة تعبانة شوية ماقدرتش تيجي".

نعم لم يكن بمقدورها الحضور، نعم هي مريضة؛ ولكنها مريضة بحبه. هكذا حدث نفسه باسمًا.. لا تستطيع أن تراه وهو يُزف لغيرها، لقد كان على حق، لقد فاز برهانه.. ولكنه رهان كلا الطرفين فيه خاسر!.

****

- "حسام" احنا ليه مش هنحضر فرح "خالد"؟!

هكذا سألت "هدى" وهي حائرة من أمره. صمتت قليلًا وهي تنظر إلى ذاك الغاضب المرتكز بساعده إلى حافة النافذة، متجمدة عيناه في بقعة ما بعيدة، وربما تكون غير موجودة بالمرة سوى بعقله فقط. أعادته عبارتها إلى أرض الواقع وقال ببرود:

- أول مرة أشوف عروسة عاوزه تقطع شهر العسل وترجع مصر علشان فرح حد تاني!

مطت شفتيها بلامبالاة وهي تجيبه قائلة:

- لا مش كده.. بس إحنا طولنا فعلا هنابقالنا شهر ونص في تركيا، وماما وبابا وحشوني أوي.

ابتسم ساخرًا:

- آه، علشان كده بقى.. طب ما تقولي كده من الأول؟

شعرت بحنق شديد يلفها وهتفت بضيق:

- يا "حسام" إنت على طول ساكت وسرحان.. حتى لما بنخرج نتفسح باحس إنك مش مركز معايا أصلا.. وبصراحة بقى أنا زهقت وعاوزه أرجع مصر.

أغمض عينيه وخرجت كلماته متألمة وهو يقول:

- أسبوعين كمان وننزل مصر.

تحولت إليه بجسدها كله دفعة واحدة وهي تهتف بدهشة:

- أسبوعين ليه؟!، ما ننزل بكره ولا بعده وبالمرة نحضر فرح "خالد وحبيبة"؟

كانت تنتظر جوابًا، ولكنها وجدت عاصفة متحركة قادمة نحوها وهو يصيح غاضبًا:

- أنا مابحبش حد يقولى لاء.. فاهماني؟

أنهى عبارته، وتنحى جانبًا قبل أن يلتهمها بداخل بركانه الثائر، وخرج من الغرفة بأكملها، وصفع الباب خلفه بقوة اهتزت لها الجدران وزجاج النوافذ، وجعلتها تجفل منتفضة مندهشة. ماهذا الرجل؟! إنه حنون أحيانًا، شغوف أحيانًا،شارد معظم يومه، غاضب بلا أسباب!، أغمضت عينيها لتستعيد هدوءها، وتناولت هاتفها النقال لتحدث والدتها!.

****

حفل زواج آخر، لم يبعد كثيرًا عن الحفل الأول، وها هي نفس القاعة تتزين مرة أخرى لاستقبال عروسها الجديدة، وعلى نفس الأريكة البنفسجية الوثيرة المزينة حوافها بالتل الأبيض المرصع بزهور الياسمين والبنفسج الطبيعية، لتعطي مزيجًا متجانسًا بين الرقة والجمال والروائح النفاذة المنعشة.

جلست "حبيبة" بجوار "خالد"، بثوبها الأبيض الذي تتداخل فيه الخيوط الفضية اللامعة مع الخيوط الذهبية البراقة حول الخصر والذيل الطويل،الذي أعطاها مظهرًا ملكيًا فريدًا، وطرحتها المصنوعة من التُل المرصع بفصوص صغيرة تلمع عندما تحرك رأسها، ومثبتةً بعناية أسفل

شعرها المرفوع معظمه للأعلى، وقد انسابت منه خصلات ليست بالكثيرة حول وجهها برقة ونعومة.

هي أيضًا كانت مترقبة، معلقة عينيها بباب القاعة البعيد. ولكنها كانت تختلف عنه كثيرًا، وتخشاه بشدة في تلك اللحظة الفاصلة في حياتها المستقبلية.. هل أخشى أن أصبح العروس الهاربة بثوبها الأبيض بأمر من عينيه؟!.. لا، لن أخضع.. سأتحاشى النظر إليه.. ولكن، ماذا لو قبل أناملي؟ هل سأتحسس ظهر كفي موضع شفتيه؟ أم سترفض راحتي مغادرة قبضته فيفتضح أمري؟، ليته لا يأتي.

كانت كلمات "نور" في تلك اللحظة هي طوق النجاة، عندما همست لهما معتذرة:

- ماتزعلوش من "حسام" يا ولاد إنتو عارفين بقى شهر العسل نساه نفسه!

اطمأنت أكثر عندما أردف "خالد" قائلًا:

- ولا يهمك يا عمتو هو كلمني واعتذرلي.. غصب عنه مش لاقي حجز خالص.

أرخت جفنيها براحة كبيرة، عندما تيقنت من عدم حضوره، وعبثت بطرف ثوبها في استرخاء شديد، غير عابئة بأصدقاء "خالد" الذين بدأوا في التوافد والالتفاف حوله،بعضهم يهنئه، والآخر يهمس له بمكر وهو يدس بسترته شيئا صغيرا لم تره بوضوح.وانطلق الدخان الأبيض الشفاف من مضخاته المستترة حول مقعدي العروسين متجانسًا، مع بدء انسياب الموسيقى الهادئة التي تدعوهما للرقص البطيء.

تناول "خالد" أناملها بين أصابعه، آخذًا إياها إلى تلك الدائرة المضيئة بوسط القاعة، بأنوار متلألئة حول حوافها المرتفعة قليلا عن الأرض. وضع يديه

حول خصرها، ونظر في عينيها..ورحل بعيدًا بقلبه عائدًا به سنوات إلى الماضي!

شعر بأن "حنين" تحتل وجه "حبيبة" رويدًا رويدًا، وتبتسم له بسعادة وشوق كبير.ابتسم وهو يطبق بدون وعي حول خصرها باضطراب،حتى انتزعته "حبيبة"من ماضيه، عندما سألته بقلق:

- مالك يا "خالد"؟!

أغمض عينيه محاولًا استعادة قلبه المأخوذ، وقال مستفهمًا:

- مالي؟

ابتسمت متعجبة وهي تشير بعينيها إلى وجنته قائلة:

- مش حاسس بالدموع دي؟!

انتبه إلى أن عينيه تدمع بالفعل دون أن يشعر، فمد أصابعه يمسحها على الفور، وهو يبتسم بمرح..

- الدخان بقى معلش.

ابتسمت غير مصدقة إياه، ولكنها لم تعقب؛ فكل منهما بعيدعن الآخر بما يكفي، برغم التحام جسديهما.

مال "راغب" قليلًا باتجاه زوجته وقال ساخرًا:

- أختك شكلها مش طبيعي.

ابتسمت "نشوى" وهي تقول بزهو:

- أنا عارفه ليه؟

نظر إليها بلهفة؛ فطريقتها توحي بأن لديها الكثير لتقوله. ولكنه لم يسأل.. انتظر؛ فهو يعرف زوجته جيدًا،ويعلم أنها تريد البوح بما لديها. مالت نحوه هامسة:

- يوم خطوبة "حسام" سمعتهم بيتكلموا لوحدهم، وكانوا منفعلين أوي لدرجة ماخدوش بالهم إنى قريبة، وصوتهم كان عالي سمعت كل حاجه تقريبًا.

أومأ برأسه ليحثها على المتابعة، وقد شحذ حواسه جميعًا، وكلما انغمرت في سردها، لمعت عيناه جذلًا، وهو يفكر كيف سيستخدم ما قدمته له من معلومات ثمينة في المستقبل.

عندما رأت بريق عينيه يتصاعد فهمت ما يفكر به سريعا ولكنها لم تستطع أن تصل إلى مكان ما بعقله أو بقلبه لترى النشوة التى حلت به وهو يتخيل "حبيبة" تستجيب له هو الآخر خوفاً من أن يفشى سرها مع "حسام" ويفضحهما معاً.

****

انتهى الحفل، واستقرت "حبيبة" بجوار " خالد" بسيارته، ولوحت للجميع بابتسامة صغيرة مودعة، وهو ينطلق بها في طريقهما إلى منزله. كلما ابتعد عن الفندق، خفق قلبها بشدة، وهي تنظر في المرآة بجوارها وترى انعكاس صور أسرتها وأصدقائها يتلاشى شيئًا فشيئًا، وكأنما تختفي حياتها القديمة ليحل محلها مستقبلها الجديد بصحبة "خالد"،الذي ينظر إليها بين دقيقة وأخرى مبتسمًا بسعادة، ويزيد من سرعة انطلاقه إلى المنزل.

هو لا يدري أن قلبها يكاد يقفز خارج حنجرتها من فرط الخوف والاضطراب والترقب، وقد زاد قلقها عندما رأته يبتلع ذاك الشيء الصغير الذي أهداه إياه صديقه في الحفل، وتلاه بلفافة تبغ غريبة الشكل رائحتها مقززة، مما جعلها تبتعد في غرفتها وهي تضع يديها فوق صدرها لعلها تهدأ قليلًا أو تجد حلًا ما.

ولكنه لم ينتظرها كثيرًا.. هل سقطت مغشيًا عليها من شدة الخوف، أم من فرط قسوته وهي بين يديه؟ لم يستمع لها وهي ترجوه أن يتركها الليلة فقط، وهل كان في وعيه حتى يستمع لها؟!.وكأنما تجمد احساسه بوجودها، وانتهى منها موليًا ظهره إليها مترنحًا، ثم نام وكأنما أغشي عليه فجأة وأصبح دون حراك.

****

استيقظت في الظهيرة لتجد أمامها شخصًا آخر غير ذاك بالأمس. لقد كان مرحًا للغايةوهو يوقظها هاتفًا:

- يالا يا كسلانه ورانا سفر.

حدقت به بدهشة.. لم تستطع في البداية استيعاب تبدله هكذا، فضلًا عن أن تستوعب حديثه عن السفر وهي تتساءل:

- سفر إيه؟!

جذبها لتنهض من الفراش وهو يقول بغموض:

- هتعرفي بعدين يالا قدامنا ساعة بالكتير وننزل من البيت.

جمعت بعض ملابسها على عجلة منها وهي تتذكر قبل الزواج بأيام عندما طلب منها جواز سفرها ولم يشأ أن يخبرها عن السبب حينها.على أية حال لن يختلف الأمر كثيرًا، ولن يصبح أكثر سوءًا مما واجهته الليلة الماضية.. لقد كانت الأسوأ على الإطلاق، أو هكذا كانت تظن .

* * *

- 10 -

الشوق حتى الألم، هذا ما شعُرت به فور معرفتها بوجهتهما،وهو يقص عليها بحماس ترتيباته التي خطط لها ليفاجئ ابن عمته.كادت أن تصرخ برغبتها بالعودة، ولكن كيف ذلك وقد حلقت الطائرة وانتهى الأمر.

لاحظ شرودها والتعاسة البادية على وجهها رغم زينتها المتقنة، تناول كفيها بحرص وضغط عليهما معتذرًا بهمس:

- أنا آسف على اللي حصل إمبارح.. والله ماكنتش في وعيي.

توردت وجنتاها حرجًا، محتفظة بابتسامة باهتة وهي تجيبه بخفوت:

- متأكدة من كده.

ابتسم ممتنًا لتفهمها وهو يعتدل مستندًا إلى ظهر مقعده. كان حماسه شديدا للرحلة، فهي المرة الأولى التي يقضي فيها إجازة خاصة منذ زمن ليس بالقصير، وهذه المرة تصحبه عروسه.

لاشك أنه يحب قضاء شهر عسل مميزفي بلد مميزة جديدة، يسافر إليها لأول مرة، ولا ضير أيضاً فى أن يختبر جاذبيته لساعات قليلة بعيداً عنها فلربما حظى بلحظات مميزة أيضاً تكتب فى سجل مغامراته الحافل مما يشعره

بالإثارة والتحدي، ولم يكن باستطاعته تركها وحدها إن لم يكن معها ما يلهيها عنه وينسيها أمره إلا صحبة "هدى وحسام " فهل سيفعل؟!

****

الصدمة حتى الذهول ما جعلته يتصلب مكانه عندما وقعت عينيه عليهما في بهو الفندق.خرج صوت "هدى" فرحا عاليًاوهي تجذبه باتجاه الاستعلامات وقد سمعها "خالد"، فنظر إليهما وهو يلوح بيده لهما، غامزًا بعينه لـ"حسام" زهوًا بذكائه ونجاح مخططه. لقد سمعت هى الأخرى نداء "هدى" ولكنها اختلقت حديثاً ما مع موظفة الإستقبال حتى لا تلتفت إليهما، لا تريد أن تقع عينيها عليه بهذا الشكل، تريد أولاً أن تستمع إلى صوته ثم تلتفت تدريجيا ثم تراه بشكل كامل.

شعرت فى تلك اللحظة بمدى حمقها فابتسمت ساخرة من نفسها، أيتها البلهاء هل تظنين أنك سيغشى عليكِ لمجرد رؤيته دفعة واحدة ؟!،

وحتى وإن تصنعت عدم رؤيته هل تستطيع منع حواسها من الشعور به ! .

عانق "خالد" "حسام" طويلًا، بينما رحبت "هدى" بـ "حبيبة" مقبلة إياها بسعادة كبيرة،واكتفى "حسام" بأن أومأ برأسه بابتسامة خاوية مرحبًا بها.

أبدلت "حبيبة" ملابسها،وأغلقت الستائر واستلقت فوق الفراش الوثير، الذي غاص بجسدها للأسفل هو ووسائدة المريحة مما أعطاها شعور بالإحتواء والراحة، تنتظر "خالد"،الذي استأذن منها وخرج متعللًا برغبته بالانفراد بـ"حسام" قليلًا، طابعًا قبلة صغيرة على وجنتها وهو يعدها بعدم تأخره. كانت في حاجة شديدة إلى النوم بعد التوتر الشديد الذي شعرت به منذ أن رأته في البهو بالأسفل. تململت في الفراش قليلًا،قبل الاستغراق في النوم، لتذهب في أحلام أكثر توترًا، جعلتها تستيقظ متعرقة، وأخيرًا

استوعبت أنها كانت تحلم، وأن "خالد" لم يحضربعد.لقد تركت ليلة أمس آثارها في ذاكرتها، وكانت سببًا في كابوس جديد أيقظها. تناولت هاتفها النقال ونظرت إلى الساعة، فرفعت حاجبيها مندهشة. لقد مرت عليها ثلاث ساعات كاملة!

نهضت بتكاسل، لتجلس فوق المقعد المجاور للفراش، وهي تضغط جانب رقبتها الأيمن براحتها، وباليد الأخرى تحاول الاتصال بـ"خالد": لقد تأخر كثيرًا، وقد بدأت معدتها تنذرها بصرخة قوية إن لم تستجب لها.

- أنا آسف يا حبيبتي معلش الكلام خدنا شوية.

أتاه صوتها الخجل وهي تقول بتردد:

- طيب أنا جعانه أوي.

صدرت منه ضحكة قصيرة، وقد أدرك خجلها من أن تطلب الطعام وقال:

- طيب اجهزي وأنا هاجي آخدك في هنا مطاعم جبارة.

ابتسمت وهي تنهض بحماس لتستبدل ملابسها.اختارت ملابس بسيطة، ذات ألوان فاتحة بألوان السماء، وجعلت زينتها بسيطة، تكاد لا تُرى، وعقصت شعرها خلف رأسها، تاركة خصلة صغيرة وحيدة تنسدل فوق جبينها، مما أعطاها مظهرا فاضت منه البساطة والاستعداد لمغامرة ما، في تلك البلاد التي وقعت في غرامها من أول وهلة.

انتهت من وضع لمستها الأخيرة، ونظرت في الهاتف. قررت أن تتحرك وتنتظره في بهو الفندق،عل انشغالها بالمكان يساهم في إسكات الجوع الذي يضرب معدتها بضراوة.

ضغطت أزرار المصعد، ثم عدلت عن الفكرة بابتسامة حماسية، واتجهت إلى السلم الواسع قفزًا،كما كانت تفعل أحيانًافي منزلها بالإسكندرية.عندما وصلت للأسفل، وجدت نفسها على بُعد خطوات من المصعد، ومن "حسام" الذي كان يتحدث بضيق إلى "خالد"، وقد وقفا في انتظار نزول المصعد إليهما.

كان يتحدث بصوت مرتفع وهو يعنف "خالد" قائلًا:

- والله أنت ما عندك دم، سايب مراتك ورايح تتسرمح من أول يوم؟

إذن فهو لم يكن معه كما قال لها! فلماذا؟ لم تنتظر كثيرًا، فلقد جاءتها الإجابة..

- ماتحبكهاش بقى يا أخي، دول هما يومين هشوف نفسي فيهم ولما نرجع مصر أبقى أهتم بيها يا سيدي هي هتروح فين يعني؟

وصل المصعد في تلك اللحظة واختفيا بداخله.وجرَت هي قدميها نحو بهو الاستقبال، وجلست على أقرب مقعد صادفها، تجاهد تساؤلاتها المتزاحمة برأسها.ألا يزال "خالد" يظن نفسه أعزبا، ويريد التمتع بقدر من الحرية، قبل الدخول في المسئوليات؟إنه مؤشر إلى زهده فيها وعدم شغفه بها، ومن اليوم الأول لهما معًا!

ثوان أخرى، وأتاها رنين هاتفها، فقررت عدم البوح بما سمعت منذ قليل وأجابته بهدوء:

- أنا تحت في الريسبشن.

دقيقتان ووجدته يخرج من المصعد متجهًا إليها، وما إن وصل إليها حتى قال بقلق واضح:

- قلقتيني عليكي يا "حبيبة"، ما قلتيش ليه إنك هتستنيني تحت؟

تفحصت وجهه للحظة.. يبدو عليه القلق بالفعل.. هو صادق في كلماته. قالت بابتسامة جاهدت على أن تجعلها مرحة:

- خلصت وقلت أتحرك شوية في المكان.

ثم تابعت وهي تضع يدها على معدتها:

- يالا بقى أنا هاموت من الجوع.

ضحك وهو يمسك كفها بحنان قائلًا:

- حاضر والله بس استني ثواني زمان "حسام" و"هدى" نازلين.

توترت وعبثت بخصلة شعرها متسائلة:

- إيه، ده هما جايين معانا؟

أومأ برأسه وهو يراقب هبوط المصعد قائلًا:

- "حسام" يعرف البلد هنا أكتر مني؛ وبعدين الخروجة الجماعية بتبقى لذيذة.

لم يكن هناك متسع من الوقت لإثارة مناقشة تُعلن فيها رفضها لاقتراحه، فما إن أنهى عبارته، حتى توقف المصعد وخرجا منه وسط مجموعة صغيرة من نزلاء الفندق، واتجها إليهما مباشرة. صمتت وهي تتوجه ببصرها تجاه "هدى" وحدها، مستقبلة إياها بابتسامة ودودة.

كان وجوده معها في مكان واحد كافٍ لإثارة توترها وحنقها، فلم تستطع أن تستمتع بالغذاء الشهي الذي وضع أمامهم في أحد المطاعم الشهيرة القريبة من شارع الاستقلال، الممتد من ميدان تقسيم، أحد أشهر المناطق السياحية بالعاصمة.

تعمد هو أن يأخذ شهيقًا كبيرًا وهو يشتَم إحدى بتلات الزهور المرصوصة على حافة النافذة المجاورة له، ويقول بصوت جعله مسموعا وهو مغلق العينين:

- سيني سيفيوروم.

ارتعش جسدها وقد شعرت أن الكلمة موجهة لها، بينما ضحك كلا من " هدى" و"خالد" بدهشة، وقال الأخير ممازحًا:

- ده أنت بقيت تركي مأصل!

ظلت متجهمة متململة في جلستها، حتى انتهى الجميع من تناول طعامهم، وبعد الغداء أخذهم "حسام" في جولة داخل الساحة، بدءًا من النصب التذكاري، وحتى مركز التسوق، والذي قضى على ماليهم من وقت وجهد، بل وأموال أيضًا! وأنهاها بالترام القديم،الذي أقلهم بدوره إلى برج غلتا، أحد أشهر المعالم التاريخية في اسطنبول.

****

ألقت "هدى" جسدها المنهك فوق الفراش، وأغمضت جفنيها بارهاق وهي تقول مبتسمة:

- رغم أني شفت الأماكن دي كتير، لكن استمتعت النهارده جدا.

عندما لم تتلق إجابة، فتحت عينيها، فوجدت "حسام" يبدل ملابسه واجمًا. لم يسمعها منذ البداية، ولذلك لم يعقب! زفرت بقوة وهي تُعيد غلق عينيها مرة أخرى وقالت حانقة:

- اللي يشوفك وانت عمال تتكلم بره مايشوفكش وانت مابتردش هنا!

التفت إليها وهو يقترب من الفراش معتذرًا:

- معلش يا "هدى" دماغي مشغولة شوية.

مطت شفتها بحنق، فاستند بمرفقه إلى الفراش، مبتسمًاابتسامة واسعة وهو يقول:

- طب ماتزعليش، تحبي نروح الشط بكره؟

****

ابتسمت، وأغمضت عينيها تاركةً الهواء يعبث بشعرها، ليتناثر حول وجهها في غير ترتيب، والمياه تضرب عقبيها وتُدغدغهما برقة، وتُفتت بعض الرمال تحت قدميها. تنفست بعمق وسعادة وهي تستنشق رائحة البحر تتغلل إلى رئتيها، فتذكرها بوطنها الأول "الأسكندرية"! وأصوات الطيور تتناغم مع هدير البحر، لتكتب سيمفونية عذبة بمداد من الطبيعة الخلابة حولها.

اقتربت "هدى" وقالت بمرح:

- أول ما شُفتي المية نسيتي نفسك يا حبيبة"؟

أجابتها دون أن تلتفت:

- طول عمري بانسى نفسي قدام البحر.

ثم التفتت إليها برأسها وهي تنزع نظارتها الشمسية مردفة بمرح:

- بس مابعرفش أعوم.

رفعت"هدى" حاجبيها مندهشة قائلة:

- معقول اسكندرانية ومابتعرفيش تعومي!

ضحكت "حبيبة" وهي ترفع كتفيها بطفولة وهي تقول:

- البس المايوه وانزل في الميه لحد وسطي بس.

تبادلتا الضحكات المرحة للحظات، قبل أن ينضم إليهما "خالد" ويقف بجوار"حبيبة"، ثم يحيط كتفيها بذراعه وهو يقول متسائلًا:

- مش هتنزلوا المية ولا إيه؟

أشارت "هدى" إلى إحدى الكبائن الصغيرة موجهة حديثها إلى "حبيبة":

- شايفة الكابينة دي اللي ورا "حسام" على طول؟.. ممكن تغيري فيها براحتك

وقبل أن تستدير لتذهب قالت متسائلة:

- وانتِ يا "هدى" مش هتغيري؟

حركت "هدى" رأسها نافية وهي تقول:

- لاء معلش يا "حبيبة" أنا أصلي مابحبش المايوهات، وبعدين أنا متعودة أقعد أقرا كتاب قدام البحر روحي انتِ.

ابتعدت خطوات قليلة، فلحق بها "خالد"وقال بنبرة معتذرة:

- معلش يا حبيبتي هسيبك بس نص ساعة وهارجعلك على طول مش هتأخر.

أمسكت ذراعه وقطبت جبينها وهي تهتف بضيق:

- تاني يا "خالد"؟ هتسيبن تاني وتقول لي نص ساعة.. هتروح فين يا "خالد"؟

تناول راحتيها وقبلهما في سرعة قائلًا:

- أنا عارف إني غلطان بس هعمل إيه الراجل ده يادوب اتعرفت عليه امبارح وهينفعني أوي في شغلي.. نص ساعة بس مش هتأخر، ماشي؟.. يالا سلام خلي بالك من نفسك.

نادته مرة أخرى، فلم يجبها وقد ابتعد خطوات كثيرة، كافية لأن يدعي عدم سماع صوتها،الذي ذهب أدراج الرياح.

أرادت أن تغسل حيرتها وضيقها بين الأمواج. ففي كل يوم وكل ساعة تكاد توقن أنها ليست عروسًا تثير شغف زوجها، بل بفتور يدفعها إلى ذاك الإحساس القاتل بعدم الثقة، بكونها أنثى مستحقة أكثر من هذا بكثير .

أسرعت بها خطواتها تجاه الكابينة، بدلت ملابسها وهي تحاول ضبط انفعالاتها،وفتحت الباب وخطت خطوتين للخارج، وقد ارتدت ملابس البحر المكونة من قطعة واحدة سوداء اللون، وحاصرت خصرها بشال أسود شفاف تربطه إلى أحد جنبيها، جعلها تظهر بشكل أكثر فتونًا، وتخفي عينيها وما يعتمل بهما خلف نظارة سوداء قاتمة.

وقبل أن تُكمل خطوتها الثالثة،فاجأتها قبضته تلتف حول معصمها، وبيده تدفعها للخلف باتجاه الباب مرة أخرى، فشهقت وهي تلتفت إليه.امتزج الحنق بخوفها منه وهي ترى عينيه يتطاير الشرر من بركانهما وهو يهدر كالأمواج الثائرة:

- ادخلي حالا غيري الزفت اللي انتِ لابساه ده.

تألمت وهي تحاول تخليص معصمها المسحوق في قبضته..

- سيب إيدي.. وانت مالك إنت ألبس اللي أنا عاوزاه؟

بقبضته الأخرى فتح الباب،دفعها للداخل برفق وهو يشير محذرًا بسبابته:

- قسمًا بالله لو ما غيرتي المايوه ده لهتشوفي "حسام" تاني خالص، ولا هيهمنى حد.

أغلق الباب بقوة جعلتها تنتفض، فركت معصمها وهي تنظر إلى أثر قبضته دامعة العينين.

خلعت نظارتها وقذفتها بعنف وهي تصرخ باكية وكأنه أمامها:

- إنت مش وصي عليا..إذا كان جوزي عارف وموافق وسابني ومشي انت اللي هتحميني!

كان لايزال في الخارج؛ وبرغم سخطه عليها، إلا أن صراخها بتلك الكلمات آلمه بشدة..إنها تموء كالقطة المحبوسة تعاني إهمال صاحبها. بقلة حيلة وانكسار،ترك الباب وعقد يديه فوق صدره، وسار بشرود باتجاه "هدى"،التي تمددت فوق أحد المقاعد الكبيرة أسفل المظلة المفتوحة أمام البحر، منهمكة بالحديث في الهاتف، تنصت تارة وتضحك أخرى. جلس على المقعد المقابل لها، واتكأ بمرفقيه على فخذيه وهو ينظر إليها بتمعن شديد أربكها، وجعلها تُنهي المكالمة سريعًا..

- طيب يا "سمر" هكلمك كمان شويه مع السلامة دلوقتي.

وضعت الهاتف، والتفتت إليها متسائلة:

- في حاجه يا "حسام"؟

قال دون مقدمات:

- حكيتيلها تفاصيل يومك زي كل مرة؟

قطبت جبينها وهي تمط شفتيها بضجر قائلة:

- قلتلك قبل كده ماما معودانا نحكي معاها كل حاجة!

رفع حاجبية وهو يقول ساخرًا:

- واختك "سمر" معوداكي برضه تحكيلها كل حاجة؟

اعتدلت جالسة بضيق هاتفة:

- في إيه يا "حسام"؟ هي أول مرة يعني تشوفني بحكي مع "سمر"؟ أنا مش فاهمة إنت إيه اللي مضايقك؟

رفع نظارته يلملم بها خصلات شعره المبتل للأعلى، وضيَّق بين عينيه وهو يقول بنبرة منخفضة متوعدة:

- كله إلا علاقتنا الخاصة يا "هدى"..

أشاحت بوجهها مرتبكة وهي تقول بتردد:

- دي كانت مرة واحدة بس اللي اتكلمت فيها في الموضوع ده.

أمسك كتفها بحدة جعلتها تنظر إليه مضطربة وقال متوعدًا:

- أنا حذرتك قبل كده يا "هدى " واديني باحذرك تاني..

تناولت الكتاب الموضوع بجوارها، واستقلت وهي تفتحه، تُخفي بين أوراقه وجهها المحتقن وهي تجيب:

- فاهمة.. لو سمحت بقى سيبني اقرا.

نهض متأففًا عائدًا إلى البحر من جديد، يُلقي بجسده بين أمواجه ويدفعه بقوة بين طياته، سابحًا بضراوة إلى عمقه، لعله يُطفئ بعض ثورته التي نشبت بعد رؤيته لها بملابس البحر الماجنة.كلما تذكرها ضرب المياه بيديه بعنف وقوة أكبر،ينهك جسده ويجبر عقله على النسيان، وهو موقن أنه في هذه اللحظة يخون صديقه،الذي ترك زوجته هكذا بضاعة متاحة.

****

وضع سماعة الهاتف قائلًا بدهشة وهو يضرب كفًا بكف:

- والله مجنون.

نظرت إليه في المرآة وهي تجفف شعرها بالمنشفة متسائلة، فهتف بحنق:

- "حسام" قفل حسابه ومشي من الفندق وهو ومراته من غير ما يقول.

خفضت ذراعيها وهي لازالت ممسكة منشفتها وهي تقول:

- مش كان لسه فاضلهم كام يوم كمان؟

وضع لفافته فوق المطفأة بحرص، وهي مازالت مشتعلة يتصاعد دخانها إلى الأعلى، ونهض واقفا وهو يقول بتفكير:

- الواد ده فيه حاجه مش طبيعية.. كل يوم يبعدعني أكترمن اليوم اللي قبله، ولما بحاول أقرب منه يهرب مش عارف ليه!

عادت بوجهها إلى المرآة مرة أخرى، وأخذت تمشط شعرها بصمت، وكل خلجة منها تصارع الأخرى، بمزيج غريب من السعادة والحزن!

****

منذ ذلك اليوم وهو يتخذ الهرب مسلكًا وطريقًا له، ولقد ساعدته هي علي ذلك، فلقد كان حملها كافيًا للتذرع بتعب الحمل المعتاد، لعدم حضور المناسبات التي قد تجمعهما.شهورعدة وقرارهما بالفرار يزداد ثباتا مع ثبات حملها،حتي مضت في شهرها التاسع تنتظر وقت الفكاك والخلاص، إلا أنها في أحد الأيام اضطرت إلى الانصياع لإلحاح " نور" وقد أظهرت استياءً كبيرًا بسبب امتناع "حبيبة" عن زيارتها. ذهبت إليها مرغمة في زيارة سريعة، وجلست بين يديها معتذرة وهي تتلعثم بحرج:

- والله يا طنط الحمل تاعبني أوي مش قادرة أتحرك.. حضرتك كنتِ بتشوفيني تعبانه إزاي لما بتزورينا؟

زفرت "نور" وقالت:

- خلاص بقى انتِ قربتي تولدي ولازم تتحركي.

صمتت "حبيبة" لا تعلم ماذا تقول، فاستطردت "نور" قائلة بإصرار:

- انتِ هتباتي معايا لحد ما "خالد" يرجع من السفر.

ابتسمت "حبيبة" متهكمة وهي تقول:

- ماتقلقيش عليا يا طنط.. أصلا "خالد" مسافر على طول وأنا ببات لوحدي عادي.

حسمت " نور" الجدال وهي تنهض قائلة:

- ماينفعش أسيبك تباتي لوحدك وانتِ على وش ولادة، والكلام ده مافيهوش نقاش.. أنا هقول لهم يحضروا الغدا.

تابعتها "حبيبة" ببصرها متعجبة، وهي تنصرف بعد أن أنهت عبارتها الآمرة رافضة للنقاش.

لقد أتعبتها تلك الأسرة كثيرًا.. يلقون إليها بالأوامر، وهي ما عليها سوى التنفيذ. ما أدهشها حقًا أن ارتسمت ابتسامة جذلة فوق ثغرها، فلقد اكتشفت أنها تحب خوفهم العنيف عليها إلى حد الجنون!. الخوف الذي تفتقده وسط عائلتها.

- هتنامي في أوضة "حسام" لحد بكره بس.. أصل التكييف في أوضة "خالد" بايظ وأنا مابعرفش أغير مكان نومي. ما تقلقيش، "حسام" من ساعة ما اتجوز مدخلش أوضته تقريبا.

أومأت برأسها متفهمة، وهي تفتح الباب وتلج للداخل ببطء وخجل. تركتها " نور" وذهبت باتجاه غرفتها وهي تقول:

- لو احتجتي حاجه ماتتكسفيش البيت بيتك.. تصبحي على خير.

أغلقت الباب خلفها، واستدارت لتواجه غرفته وحدها.اصطدمت أنفها برائحته تعبق المكان.. كان ذلك كافيًا ليثير بداخلها مشاعر كثيرة متداخلة، بين الخجل والقلق والفضول.استلقت فوق فراشه بحركة خفيفة، وكأنها تخشى أن توقظه!.

توسدت خيالها، وتلحفت بذهنها الذي أصبح في نقاء صباح ساطع، لا تشوبه غيوم ولا يعكره ضباب.. رسم عقلها صورة مجسمة له وهويقطع الغرفة ذهابًا وإيابًا، يتحرك بين جنبات الحجرة الواسعة، يتكلم، يضحك، يشاكس من حوله بابتسامته الجذابة..ووجدت شفتيها تهمس باسمه دون وعي، وكأنما تناديه.

****

انتفض معتدلًا في جلسته في حركة فُجائية بلا مبرر، بعد أن كان مسترخٍ وهو يشاهد التلفاز،مما جعل "هدى" تفزع وتسأله:

- مالك يا "حسام"؟

التفت إليها بعينين شاردتين دون أن يجيب، فقالت مردفة:

- مالك اتنفضت فجأة كده ليه؟!.. خضتني.

نهض واقفًا وهو يلتقط سلسلة مفاتيحه من فوق الطاولة، ويسرع باتجاه الباب وهو يقول:

- أنا رايح عند ماما.

نهضت وسارت خلفه وهي تقول مندهشة:

- فجأة كده؟!

على عجلة من أمره أدار مقبض الباب وهو يقول:

- معلش يا "هدى" مش هتأخر.

انطلق بالسيارة مسرعًا، وهو يكاد يُقسم بداخله أنه استمع إلى اسمه من بين شفتيها تناديه، وكأنها توقظه من غفلته وتدعوه للنظر نحوها. ولكنه لا يعلم لماذا يتجه إلى منزل والدته.. هناك شيء ما يشده.. هناك من ينتظره، وبشغف!

* * *

- 11 -

وقفت أمام خزانة ملابسه والفضول والحنين يصارعانها بقوة مشهران بوجهها سلاح الشوق. رنين هاتفها أخرجها من معركتها الخاسرة، فتوجهت نحو فراشه تلتقط الهاتف وتنظر من المتصل في تلك الساعة المتأخرة.ابتسمت حينما وجدتها صديقتها "ندى"،التي لم ترها منذ أن غادرت الأسكندرية، ولم تهاتفها إلا مرة واحدة عندما وصلت القاهرة ثم انقطعت عنها حتى هذه اللحظة. ضحكت "حبيبة" وهي تتلقى لوم وعتاب صديقتها ثم قالت:

- ده على أساس إن انتِ اللي بتسألي عليا يعني؟

ردت "ندى" بهجوم طفولي:

- يا سلام هو أنا اللي اتجوزت وقطعت علاقتي بصاحبتي!

ازدادت ضحكات "حبيبة" العفوية وقالت وهي تعتذر بمرح:

- آسفه جدا والله ظروفي كانت ملخبطة خالص يا "ندى".

قالت "ندى" بمكر:

- آه طبعا ملخبطة خالص، بصراحه أنا عذراكِ، في واحدة تبقى متجوزة واحد زي جوزك ده وتفتكر نفسها حتى؟

عقدت "حبيبة" حاجبيها وقالت متسائلة:

- وانتِ عرفتي جوزي منين؟

هتفت "ندى" بنزق:

- أنا مافيش حاجه تستخبى عليا يا هانم، ده أنا اللي بعتهولك لحد عندك و اديت له عنوانك في القاهرة.

إتسعت عيني "حبيبة" وخفق قلبها وهى تقول بوجوم :

- مين ده اللي ادتيله عنواني؟

وقع قلبها في أخمص قدميها، عندما قالت "ندى" بتلقائية:

- "حسام" جوزك!

لم تتلق جوابًا، فهتفت بقلق:

- "حبيبة"؟ مالك هو أنا قلت حاجه غلط؟

شعرت بالدماء تتصاعد فجأة إلى وجنتيها وعينيها، وبدأ ألم في مقدمة رأسها يجتاحها وهي تقول بصوت مختنق:

- عرفتي اسمه إزاي مش فاهمة؟

شعرت "ندى" بتوتر صديقتها وقالت بتردد:

- بعد ما سافرتي على طول قابلته بيدور على عنوانك، ولما قلتله إني صاحبتك وإنك نقلتي القاهرة صمم يعرف عنوانك، ولما حس إني قلقانه منه قالي إنه عاوز يتقدملك وإنه كان جاي مخصوص علشان كده.. ولما عرفت إنك إتجوزتي بعدها على طول توقعت إنه يكون هو.

أنهت الحديث مع صديقتها، ذاهلة مما سمعته. هل بحث عنها وعندما وجدها كانت إلى جوار رجل آخر؟ ألهذا تحمل عيناه دومًا عتابًا صامتًا بل غضبًا مدمرًا؟استندت إلى خزانة ملابسه شاردة، تتخبط بين ذكريات متداخلة مختلطة بدموعها.. كرهت رعونتها وتسرعها في الموافقة على الزواج من "خالد".. لو كانت فقط انتظرت قليلًا!

فتحت الخزانة بحنين كبير وإشفاق على صاحبها البائس، ووقفت بالقرب من ملابسه المعلقة والمرتبة في الرفوف، بابتسامة حزينة بطعم عبراتها المتسابقة إليه منها، وهي تتلمسها بأناملها.

انهارت مقاومتها تماما، ودفنت وجهها بين ستراته تشعر بملمسه فيها، وتستنشق رائحته مغمضة العينين.

ألن يكون رائعًا لو أنها أصبحت نسيجًا، تتخلل ملابسه دون أن يشعر بوجودها؟ارتفع حاجباها أمام ورقة سميكة ترقد في الأسفل وهي تتأمل الملامح المرسومة بداخلها بدقة.. سكن الكون للحظات، إلا من دقات الساعة المعلقة علي الجدار،وعيناها تلتهم الكلمات القليلة المخطوطة أسفل الرسم:

منقذتي هي، أم أنا أنقذتها؟!

احترت في أمري، بل هو في الغالب أمرها

اقتحمت حلمي وغيبوبتي، لا أعلم حتى اسمها

خططت بقلمي أعاقبها، فوجدتني قد رسمتها

لست مراهقًا لأعشق حلمًا، ورغم ذلك عشقتها.

وذيَّل الورقة بتاريخ أول لقاء بينهما.... في القاع!

غريبة هي تلك العلاقة التي كلما ابتعدا برغبتهما جذبتهما مرة أخرى، ليصطدما ببعضهما بضراوة.."إلى متى سيظل قلبي مذبوحًا في محراب قربه البعيد"!

وكأن انفعالاتها الجمة أرسلت إشارة إلي رحمها ببداية المخاض.. قبضت علي ملابسه بقوة، وسقطت بها وهي تصرخ.

كان في تلك اللحظة يغلق باب الشقة خلفه، وعندما سمع صرختها هرول للداخل مسرعًا، وقبل أن يصل إلى غرفته اصطدم بوالدته تخرج من غرفتها بهلع، تحول لصدمة عندما رأته!.

تخطى نظراتها المصدومة، وأسرع إلى الداخل.. اقتحم الغرفة، فوجدها راكعة أرضا بجوار الخزانة، تئن من شدة الألم.

هتف باسمها وهو يحملها بين ذراعيه، تشبثت به كغريق وجد النجاة بقرصان بائس، حاولت والدته أن تتخطى دهشتها مما رأت وأن تتعامل مع الموقف وتوجهه، وهي تتناول هاتف حبيبة قائلة:

- نزلها العربية على ما اتصل بالدكتورة وأغير هدومي.

وفي الأسفل، ساعده حارس العقار وفتح له باب السيارة الخلفي. وضعها برفق وظل يجفف جبينها المتعرق بقلق شديد، حتي شعر بيد والدته توضع علي كتفه من الخلف وهي تقول:

- يالا يا حسام.

انطلق بسرعة كبيرة، وهو ينظر إليها بين الحين والآخر في مرآته، وأنينها يشق صدره، ووالدته بالخلف إلى جوارها تهتف به أن يخفف سرعته قليلًا. وصل المشفى قبل الطبيبة بدقائق،فأحضر له الأمن كرسيًامتحركًا ووقفت والدته أمام موظفة الإستقبال التي قالت ببرود لا يتناسب مع الموقف الحرج :

- آسفين يا فندم مينفعش نستقبل المريضة قبل ما الدكتورة تكلمنا وتقولنا أوكيه

زفرت نور بعصبية هاتفة:

- قولتلك كلمناها قبل ما نيجي وبحاول أكلمها قدامك أهو ومابتردش هاتسبوها تموت يعني لحد ما الدكتورة تيجي

إستند طبيب حديث السن بمرفقه إلي الجدار وهو يؤكد كلام الموظفة بنفس البرود وقبل أن ينهي كلمته كانت قبضة حسام تمسك بتلابيبه وتجذبه إليه وهو يصيح فيهما :

- هي أرواح الناس لعبة في إيديكوا

حاول الطبيب التفلت منه وهو يبادله الصياح:

- كدة .. طب خد بقي مراتك واتفضل من هنا

أخذ بعدها ما يستحقه تماماً، لكمة في أنفه كانت كفيلة بإدمائها والإطاحة به وتحطيم نظارته الطبية ، تجمع العاملين حولهما وتدخل الأطباء الكبار في الحال عندما لفت إنتابهم تلك الجلبة ورؤيتهم لحالة "حبيبة"

وصعدوا بها للأعلى، وتبعتهم "نور" ثم "حسام". قبل أن يستقل المصعد خلفهم، لحقت به إحدى الممرضات قائلة بخوف من ردة فعله التى رأت نبذة عنها منذ قليل :

- معلش يا فندم ممكن بس البيانات علشان الموظفة تسجلها عندها؟

لم يكن يعلم ماهي البيانات المطلوبة علي وجه التحديد، فأعطاها بطاقته الشخصية فقالت بتعثر:

- وبيانات المدام؟

قال بحيرة ممزوجة بالغضب :

- مش معايا دلوقتي تعالي خديها من فوق.

صعدت معه بحذر في المصعد، وهي تفكر في ذلك الإعصار الساكن بجوارها. تناولت بطاقة "حبيبة" الشخصية من "نور"،وانصرفت علي الفور بخطوات تقترب للعدو وقد أنجزت تلك المهمة المستحيلة التى كلفتها بها الموظفة المذعورة .

****

للمرة الأولى تشعر بسعادة حقيقية، وبمعنى حقيقي لوجودها في تلك الحياة،معنى أن ينتميلها مخلوق يحتاج إلى رعايتها.

اقتربت "سلمى" منهما بابتسامتها الطفولية، وحاولت حمل الصغيرة وهي تقول:

- هاتيها ألعب بيها شوية يا "حبيبة"!

بينما مسحت والدتها علي رأس الصغيرة وهي تقول باهتمام:

- مين اللي سماها "حنين"

وقبل أن تجيبها "نور"، قالت "حبيبة"علي الفور:

- أنا و "خالد" اتفقنا على الاسم ده.

ثم تابعت متسائلة:

- هو بابا فين؟.. مجاش معاكم؟

تفحصتها "نور" بعينيها باحثة عن شيء ما وجدته بعيني ولدها وهما يقفان خارج حجرة الجراحة وهي تقول بهدوء:

- مع "حسام" بره.

أغمضت عينيها وأرخت رأسها إلي الوسادة الكبيرة خلف ظهرها، تاركة الطفلة بين يدي والدتها، وهي تفكر في حديث الممرضة التي دلفت معها إلي الحمام، تساعدها في تبديل ملابس الجراحة، وظلت تصف لها قلق "حسام" عليها وهي في غرفة العمليات، عندما أخبرتهما الطبيبة أن الولادة متعسرة وينبغي إجراء جراحة قيصرية. بقيت صامتة تستمع إلى استرسالها في الحديث ظنًامنها أنه زوجها.

مازال الجرح أسفل بطنها يؤلمها بشدة ولكن الألم الحقيقي هو غياب زوجها في موقف كهذا، تاركًا غيره ليقوم بدوره،بل ويقوم به بإتقان، كما لو كان دوره هو حقًا. وكأنه معتاد على القيام بأدوار البطولة دومًا.

عادت إلى واقعها، عندما لفت انتباهها صوت "نور" تجيب هاتفها وتتحدث إلي "حسام" بنبرة حادة مختلفة عن عادتها في الحديث معه قائلة:

- قلتلك خليه يدخل مافيش مشكلة.

دخل "راغب" بصحبة والدها، وبقي "حسام" عند الباب خلف الجميع، يراقب تصرفات "راغب" عن كثب.لكنه بعد دقائق، تقدم باتجاه "فريدة" والدة "حبيبة" وهو يهم بحمل الصغيرة قائلا:

- تعالي يا "حنين" وحشتيني يا روحي.

ابتسم الجميع وهو يأخذها ويبتعد بها، ليعود إلى مكانه في الخلف منشغلًا بالطفلة عنهم، أو هكذا تظاهر بالانشغال، وخصيصًا عن تلك الأعين التي تراقب ابتسامته في الخفاء، وهو يداعب ابنتها بحنان، بينما قالت " نشوى" بفضول:

- لما انت بتحب الأطفال كده مأجلين الخلفة ليه؟

امتقع وجه "هدى" وهي تقول ببطء:

- إحنا مش مأجلين بس لسه ماحصلش نصيب.

رفعت " نشوى" حاجبيها وهي تتابع متسائلة:

- معقول؟... طب مارحتوش لدكتور؟

ضاق بها ذرعًا، ولكنه أراد أن يحسم الأمر، فقال بفتور دون أن ينظر إليها:

- رحنا طبعا وماحدش فينا عنده مشكلة.. زي ما قالتلك كده لسه ماحصلش نصيب.

لمعت عينا "هدى" بالدموع، واستأذنت منهم وانصرفت. تبعها "حسام" وهو مازال يحمل الطفلة،فأوقفها في الممر وحاول تهدئتها:

- ماتزعليش نفسك دي واحدة حشرية.

قالت بعصبية:

- إنت بتكلمني بشفقة كده ليه زي ما يكون العيب فيا؟

حاول أن يتحكم بأعصابه وقال وهو يضغط أسنانه:

- قلتلك مليون مره ماتعليش صوتك وانتِ بتكلميني.

نظرت إلي الطفلة ثم عادت بنظرها إليه وقالت بضعف:

- حنيت للأطفال؟ وممكن تكون كمان بتفكر تتجوز علشان تخلف!

رفع رأسه للأعلى وتنفس ببطء قبل أن يجيبها:

- جواز إيه بس! وبعدين انتِ بتفكري كده ليه؟ هو انتِ فيكي مشكلة علشان تقولي كدة؟! بكرة لما ربنا يأذن هنخلف شيلي الكلام الفاضي ده من دماغك.. ممكن؟

تماسكت وعادت إليها قوتها المتعجرفة وهي تخرج هاتفها قائلة:

- طب أنا هاخد العربية وهاقابل "سمر" وبعدين نروح عند ماما.

أومأ برأسه موافقًا وهو يقول:

- ماشي بس ماتتأخريش.. أنا مش عارف هاروح إمتى أديكي شايفه "خالد" مش موجود ولازم أفضل معاهم.

انصرفت "هدى"، بينما قطع هو الممر إلى الغرفة مرة أخرى. وقبل أن يصل إليها، سمع ممرضة تناديه، فتوقف والتفت إليها، مدت يدها بورقة متوسطة الحجم، وتحدثت معه قليلًا، وانصرفت فرحة بعد أن نقدها ورقة مالية كبيرة.

جلس إلي أحد المقاعد وهو يقرأ ما دون بداخلها. إخطار ولادة!، ضم "حنين" إلى صدره برفق وحنان بالغين، وهو يقرأ اسم الأب الذي دون بالخطأ خلف اسمها بصوت مسموع: "حنين حسام مصطفى الصياد"!

مشاعر جمة عصفت به، نعم هو يعرف أنه حدث خطأ، ولكنه أحبه وبشدة. أحب أن تنتمي إليه، ولو لساعات فقط، ولو بالخطأ. إنه يعني له الكثير.ارتسمت ابتسامة عبثية على شفتيه، إلا أن صوت "راغب" انتزعه من بين أشواك غرامه وخياله الثائر، وهو يقول ساخرا:

- مبروك.. اللي جابلك يخليلك يا حسام باشا.

رفع رأسه إليه وقد نحى عاطفته جانبا، وهوينظر إلى عينيه قائلا:

- أنا مش سبق وقلتلك تتجنبني خالص يابني آدم إنت؟

أشار "راغب" إلى الورقة بين أصابع "حسام"، وهو يرفع كتفيه مصطنعا البراءة وهو يقول:

- أعمل إيه بس يا باشا، القدر هو اللي بيحطني في سكتك دايما!

قهقه حسام ساخرا وهو يقول:

- إيه جاي تبتزني المرة دي بإخطار ولادة اتكتب بالغلط؟

نظر "راغب" إلى الطفلة، ثم نظر إلى "حسام" بمكر قائلا:

- متأكد إنه بالغلط يا باشا؟

ثم استدرك بخفوت خبيث:

- شبهك أوي على فكرة.

كان سيتلقى لكمة مشابهة للتي تلقاها في المرة الأولى، عندما ابتزه في مكتبه بالحديث الذي دار بينه وبين "حبيبة" فوق متن السفينة، ولكن باب الغرفة فُتح، وقد انتهت عائلتها من زيارتها. ، رحل "راغب" معهم وعلى شفتيه ابتسامة مقهورة .

"حسام ليس بالصيد الهين أبدًا، كيف أبدأ بالصياد وأترك الفريسة؟"، تبدلت ابتسامته إلى أخرى ماكرة. بالتأكيد ستكون هي الأسهل حينما يقرر التهامها؛ ولكن في الوقت المناسب.

لم يبق سواه ووالدته، فبقي هو في الخارج وحيدًا، يعبث بجهازه المحمول، يمرر أصابعه فوق شاشته بلا هدف، حتى حل المساء بصحبة "خالد" الذي حضرفور أن فتح هاتفه وقرأ رسالة "نور" تخبره وتدعوه للمجيء في الحال.

أمطرت عيناه زخات متوالية من الدمع الغزير، وهو يحتضن ابنته مقبلًا أطراف أصابعها الصغيرة، معتذرا لها وحدها عن عدم حضوره لحظة خروجها للحياة.

عقبت "حبيبة"بعتاب قائلة:

- طب وأم حنين مالهاش نصيب من الاعتذرات دي كلها؟

ابتسم وقبل يدها معتذرًا، ثم عاد سريعًا بكيانه كله لابنته متأملًا ومداعبًا.

أخرج "حسام" الإخطار مادًا به يده إلي "خالد" قائلا:

- حصل غلط في البيانات.. انزل صلحه تحت علشان أنا عامل معاهم مشكلة أصلًا.

ابتسم "خالد" وهو ينظر إلى الأسماء المدونة بالخطأ وقال ممتنًا:

- متشكر أوي يا "حسام" على وقفتك دي.

قال حسام شاردًا وهو يتأمل "حنين" قائلًا:

- متشكر على إيه يا "خالد" حنين بنتي زي ماهي بنتك.

تنحنحت "نور" وهي تلتفت إلى "حسام" قائلة بحسم:

- كفاية عليك كده بقى إنت صاحي من امبارح.. يالا روح ارتاح شوية.

نظر إلي "حبيبة" نظرة طويلة ثم قال بهدوء:

- حمد الله على سلامتك.

تعمدت ألا تتلاقى عيناهما وهي تجيبه..

- الله يسلمك.

مستغلة انشغال "حبيبة" بطفلتها تهدهدها لتنام على صدرها،أمسكت "نور" بذراع "خالد" لتجذبه إليها قليلًا وهي تقول بضيق:

- كنت فين يا "خالد"؟

همس وهو يلتفت إليها بدهشة:

- ما انتِ عارفه يا عمتو.. كنت مسافر.

ضيقت ما بين عينيها وهي تضغط ذراعه بغضب خافت قائلة:

- أنت هتستهبل يا "خالد"؟ أنت فتحت تليفونك وقريت الرسالة قبل ما تيجي هنا بنص ساعه بس.

تنحنح وهو يحاول تأليف كذبة ما، وقال بخفوت متعثر بين كلماته:

- أصلي كنت جاي في الطريق.. وشفت الرسالة..

نهرته بعينيها بصمت، فبتر عباراته المشوهة، وتركها عائدًا إلى مقعده بجوار فراش زوجته، ممسكًا بأنامل الصغيرة،وهو يحاول تحاشي النظر إلى عمته،التي أدركت لأي مدى ترك "خالد" زوجته تعاني فراغا قد يملأه آخر دون عناء. لو كان هذا الآخر شخصا لا تعرفه، لصبت جام غضبها على "حبيبة"، أما وقد عرفته، فلابد وأن يأخذ غضبها منحى آخر، منحى من يستحقه.

****

دخل بيته، فوجدها غارقة في نوم عميق. أغمض عينيه براحة، وهو يغلق باب غرفة النوم بهدوء، فهو لم يكن في حالة تسمح بالحديث معها أو مع غيرها، وخصيصًا بعد تلك الرسالة التي تلقاها وهو في طريقه إلى المنزل، تلك الرسالة الغريبة التي قرأها بعينين ذاهلتين، لا يكاد يصدق ما بها..

" أنا عارفةانت عاوز إيه وهاساعدك بكل جهدي.. أنا مش عاوزة غير رضاك.. فكر ورد عليا.. نشوى"!.

لم يكن أحمق إلى حد التصديق الحرفي، ولكنها فرصة تستحق التفكير على الأقل!

هبط إلي الطابق الأسفل، حيث حجرة مكتبه التي دلف إليها. أغلق المصباح الضعيف، الذي كان بالكاد يضيئها، فسبحت الحجرة في ظلام دامس. جلس بالأرض مستندًا بظهره إلى أحد جانبي المكتب الخشبي الكبير أسفل النافذة، وعقد أصابعه خلف رأسه، مستندًا إلى ركبتيه، وراح يسقط في بئر مظلم لا آخر له، تتخبطه مشاعره بين الوفاء والخيانة، والحب والغيرة، والغضب.. ومشاعر الأبوة الغريبة التي طرأت عليه، عندما حمل "حنين" لأول مرة بعد ولادتها مباشرة. لقد شعر أنها ابنته حقا.. ولم لا، فهي تشبهه إلي درجة كبيرة.

ثارت مشاعره في تلك اللحظة، وفاضت إلى حد الغليان. هل كانت تفكر بي إلي هذا الحد؟ هل ضاعت منها ليالٍ طويلة شاردة مع ذكرياتنا القليلة معًا؟ نقشت فنار ملامحي بداخلها، وصارت ترحل منها وإليها في رحلة إبحار ليلية، تتخبط بين جدائلها، وجهتها نحوي ذاتية، معذبتي هي أنثى القمر، دمعتها دومًا سادية.

حرر يديه وزفر بقوة، ثم ضرب خلف رأسه إلى المكتب يريد أن يحطمها.. صراع وحشي يدور بداخلها، لا يهدأ ولا ينام.. لا يريد أن يخون، ولكن ماذا يفعل بقلبه.إلى متى هذا العذاب؟ إلى متى؟

****

في الصباح، أيقظته هدى بهزات قوية، جعلته ينتفض جالسًا، بالكاد يفتح عينيه بصعوبة هاتفًا:

- انتِ مش هتبطلي طريقة المخبرين دي بقى.. نفسي أحس إني نايم في بيتي مش في العنبر.

عقدت ذراعيها فوق صدرها تزفر متسائلة:

- إنت إيه اللي نيمك هنا في المكتب؟

مسح وجهه ليزيل آثار الإرهاق البادية عليه قائلًا:

- كان عندي شغل وراحت عليا نومة.. هي الساعة كام دلوقتي؟

أشارت إلي الساعة المعلقة وهي تقول:

- سته ونص.

ابتسم بسخرية وهو يضرب كفًا بكف وهو يقول:

- المفروض بقى ألحق الطابور بدل ما تدوريني مكتب؟

رفعت حاجبيها بدهشة، عندما تابع وهو ينهض ويؤدي التحية العسكرية قائلًا:

- تمام يا حضرة الصول.

انصرف ساخرًا، فلم تتعجب، فهما يتجادلان هكذا منذ أول يوم لهما سويًا.. هو يريدها رقيقة مشاغبة عفوية وتلقائية، وهي تريده منضبطًا لأقصى درجات الانضباط، كما كانت ترى والدها دومًا، كل شيء بميعاد. حتي أوقات الحب تضع لها جدولا ومواعيد، فكيف ستتفق مع رجلٍ ينسى نومه، ويؤجل طعامه، ولا يقوى على تأجيل رغباته المتقدة دومًا.

****

كان على يقين أن والدته قد قضت ليلتها في المشفى بجوار "حبيبة"، وهو يغلق الباب خلفه ويلقي التحية على الخادمة، التي كانت تقوم بأعمال التنظيف في غرفة المعيشة.

أسرع إلى غرفته وهو يتمنى ألا تكون الخادمة قد بدأت بها، وابتسم عندما وجدها على حالها كما تركها، كل شيء كما هو، مبعثر على إثر سقطتها. أوصد

الباب خلفه، واتجه إلي خزانته يتفحص الملابس والصورة، فوجد ما كان يتمناه.. أثر شفتيها بلونه الوردي مطبوعا فوق إحدى ستراته.. لقد قبلتها ولم تلحظ الأثر الذي تركته خلفها.تذكر الممرضة وهي تخرج من غرفة الجراحة مقبلة عليه بابتسامة واسعة، وهي تحمل الصغيرة بين يديها وتضعها بين ذراعيه وتقول:

- ألف مبروك يا "حسام" بيه بنوته زى القمر.

وعندما سألها عن "حبيبة" قالت:

- المدام كويسه الحمد لله.. من ساعة ما ابتدت تفوق من البنج وهي بتنادي على حضرتك ربنا يخليكم لبعض.

اشتم رائحتها بقوة بين ملابسه، مغمض العينين وهو يتخيلها تحتضن ستراته وتقبلها بحب مبتسمة.

أخذ سترته الذي نقش عليها أثر حبها، وذهب إلى فراشه وجلس على طرفه وأخذ يتحسسه.. لقد كانت هنا، هل احتضنت ملابسي أولا، أم نامت في فراشي في البداية؟ من أين بدأ الشوق ياترى؟.

لمعت عيناه غراما ولهفة، وبدأ شيطانه يلعب برأسه ونفسه تزين له الأمر، وقبضته تسحق ملابسه بداخلها سحقًا عنيفًا.. إنها لي منذ البداية.. هو من اقتحم حياتها وفرق بيننا.. هو من خانني ويخونني، اختطفها وأبعدها عني.. تركته مرة وفرطت في حقي، أما الآن فلا، فهي لي، ملكي وحدي مهما حدث، ومهما كانت الخسائر.

* * *

- 12 -

التفتت "نور" لتواجه زائرها، وفي عينيها بريق غاضب ممزوج بأسئلة حائرة وإجابات ضائعة، وهي تتابع دخوله إلى الغرفة وإغلاقه للباب خلفه بهدوء حذر. وقفت صامتة في مواجهته، تراقب ملامحه المترقبة المتشنجة، أعصابه على المحك منتظرًا حكمًا بالإعدام لمشاعره ونبضات قلبه.

عقدت ذراعيها فوق صدرها وهي تقول بجمود:

- أخيرًا جيت.. بقالك شهرين بتتهرب مني..كل ما أكلمك تقول لي مشغول وتأجل.

أرسل تنهيدة قوية وهو يلقي حزمة مفاتيحه فوق المنضدة المقابلة للمقعد الذي ألقى جسده فوقه بإنهاك وهو يجيب:

- معلش يا ماما كنت مشغول شوية.

ارتفع حاجباها ساخرة، وهي تجلس بالمقعد المقابل له، وتضع ساقًا فوق الأخرى، ببطء أتلف ما تبقى من أعصابه..

- من غير لف ولا دوران.. أنا عاوزه أفهم إيه الحكاية بالظبط.. الصورة اللي شفتها بتاريخ قديم.. وهي تقول اسمك في البنج.. النظرات الغريبة اللي بينكم.. إيه اللي بينك وبين "حبيبة" يا "حسام"؟

شبك أصابع كفيه وهو ينظر إليها مستندًا بمرفقيه إلى فخذيه وهو يتمتم:

- معاكي حق يا ماما.. الموضوع مش محتمل لف ولا دوران وأنا هحكيلك كل حاجة من ساعة ما شفتهالحد دلوقتي.

اتسعت عيناها دهشة وعدم تصديق، وهو مسترسل بحكيه، بكلمات سريعة أحيانًا وبطيئة أحيانًا أخرى، يتحدث بتأثر وكأنه يرى المشاهد تتجسد أمام عينيه.استوقفته متسائلة بحذر:

- اليوم ده اللي قلت لي إنك هتروح تشوف شقتنا القديمة في أكتوبر؟

أومأ برأسه مؤكدًا وهو يجيب:

- أيوه.. مش عارف إيه اللي خلاني فجأة قررت أروح.. في اليوم ده وفي الوقت ده بالذات!.. ولما شفت العربية داخله في الرمل مشيت وراهم من غير سبب.

صمتت وتركته يستأنف حديثه.. وأخيرًا توقف، وقد انتهى وشعر بالاختناق، وأخذ يلهث بخفوت محاولًا السيطرة على البقية المتبقية من تماسكه أمامها، محاولًا قراءة ملامح وجهها،التي تعبر وبصدق عن الصدمة.

لم تكن تتخيل أن العلاقة بينهما بهذا الترابط غير المفهوم. لولا أنها تعرف ولدها جيدًا، لظنت أنه يختلق الأكاذيب أو فقد عقله. ولكن الوضع خطر، ولا يحتمل أي تعاطف من جانبها تجاه قصتهما. نهضت واقفة وهي تقول بحزم:

- البنت دي لازم تنساها وبأي شكل يا "حسام".

ابتسم بمرارة وهو يقول:

- بعد كل اللي حكتهولك ده متصورة اننا نقدر ننسي بعض!

تقدمت منه خطوات قليلة، وقد زاد الحزم في صوتها واختلط بالقسوة قائلة:

- يعنى إيه الكلام ده؟.. هتفضل تحب مراته وتجري وراها؟

اشتعل الموقف دفعة واحدة وهو ينهض ثائرًا هاتفًا بغضب مكبوت:

- مراته؟!!..مراته اللي عنيها كلها تعاسة وحزن من ساعة ما ارتبطت بيه؟.. مراته اللي بيخونها من أول يوم جواز؟..مراته اللي كانت بتتوجع وبتصرخ في المستشفى وهو مع واحدة تانية وانتِ عارفة كده كويس؟ ولا بنته اللي من ساعة ما اتولدت وأنا كل ما اتصل بيه أسأله عنها يقول لي مااعرفش.. مابشوفهاش.. بارجع متأخر وبانزل وهي لسه نايمة!

هتفت ساخطة:

- وإنت إيه... ملاك؟ مابتخونش مراتك بقلبك على الأقل؟ مابتجريش ورا واحدة متجوزة؟ لأ وإيه.. دي مش متجوزة أي واحد.. ده "خالد".. "خالد" يا "حسام".. صاحب عمرك.. اللي كنت بتدافع عنه بروحك، واللي كنت بترمي نفسك في مصايب علشان تطلعه منها.

أنهت كلماتها، ولم يتبق سوى صوت أنفاسهما اللاهثة ونظراتهما الغاضبة المتحدية. سرت قشعريرة بجسدها، عندما سمعته يقول بنبرة قاسية ونظرة مخيفة:

- مابقاش صاحب عمري من يوم ما لمسها.

أمسكت بيديه تهزه بقوة وهي تكاد ترتعد من فرط انفعالها الزائد قائلة:

- دي مراته يا مجنون.. مراته!

ابتعد عنها وتقدم نحو النافذة، ونظر إلى الخيوط الذهبية التي تكاد تنسحب من الأفق وتغيب بعد نهار طويل، فألقت حمرتها داخل عينيه وفوق صفحة وجهه، لتضيف لملامحه مسحة برية متوحشة وهو يقول بجمود:

- "حبيبة" بتاعتي.. ملكي.. وهو اللي خدها مني.. وأنا مش هسيب حقي.. حتى لو اضطريت اقتله.

همهمت بذهول:

- مجنون!

****

بداخل فستان طويل منسدل بلا أكمام، يعلوه شال أسود من نفس اللون، شفاف محيط بكتفيها، خطت خطواتها الأولى بداخل فيلا "حسام" و"هدى"، متعلقة بذراع زوجها. بابتسامة متوترة مرتبكة نظرت إلى "خالد"،الذي أطلق صفيرًا منغمًا وهو ينظر حوله وللأعلى قائلا:

- "حسام" عمل تعديلات جامدة أوي في الفيلا.

ثم التفت إليها متسائلًا:

- أظن أول مرة تيجي هنا يا "حبيبة"؟

أومأت برأسها وهي تتلفت حولها بإعجاب شديد بذوقه الرومانسي الواضح في اختياره لأماكن توزيع الإضاءة الدافئة، المزروعة بين أغصان حديقة المنزل الصغيرة نوعًا، ووسط الحشائش، مما أعطاها تداخلا ساحرًا بين ألوانها الحميمية.

تأملت القلب الوردي المنمق والمعلق فوق الباب الخشبي الكبير الداخلي للفيلا، والمنسدلة منه أشرطة ملونة متوهجة، وابتسمت وهي تشير بسبابتها قائلة:

- بص يا "خالد" صورة مين دي؟

نظر حيث أشارت إلى الصورة التي تتوسط القلب الوردي، فابتسم بدوره معقبًا:

- "حسام" مهتم بـ"حنين" أوي.

اختفت ابتسامتها ونظرت إليه معاتبة وهي تُتمتم:

- عقبال ما أبوها يهتم بيها شوية.

زفر متأففًا وهو يأخذ بيدها إلى الداخل غير معقب. لايريد أن يدخل في مساجلة كلامية إضافية، يكفي ما يحدث بينهما كل يوم من مشاحنات، بسبب إهماله وعدم اهتمامه بها أو بابنته حديثة الولادة.

استقبلتهما "هدى" في الداخل بحفاوة كبيرة وابتسامة رحبة.ابتسمت "حبيبة" ابتسامة مجاملة، وهي تستمع إلى ثرثرتها حول الحفل والمدعوين.

دارت بعينيها سريعًا في المكان بفضول.. لقد كانت الفيلا أقل مساحة وأبسط بكثير مما تظهر به من الخارج، طابقان فقط لم تر منهما سوى الطابق الأول حيث الحفل. التحف النادرة الثمينة، المقاعد الكلاسيكية الموضوعة في الزوايا بشكل متناسق، ذوق الأثاث يتطابق إلى درجة كبيرة مع شخصية "هدى" المحبة للفخامة في كل شيء والترتيب المبالغ فيه، بحيث كل قطعة في مكانها تمامًا، وكأن المنزل بلا أحياء، تستطيع أن تجزم أن هذا الترتيب المبالغ فيه لا يعجب "حسام" على الإطلاق.

عن اليمين غرفة مكتبه المغلقة، بأبوابها الزجاجية المصقولة. لفت نظرها ركن مصمم على الطريقة الإنجليزية القديمة، تحتله أريكة مريحة أمام مدفئة غير مشتعلة، يشغل الجانب الأيمن لها شاشة عرض معلقة على الجدار في مواجهة الأريكة تمامًا.

الركن به حميمية ساحرة غريبة، عيناها لم ترها من قبل. قطبت وهي تتخيلهما يجلسان ها هنا سويًا، يحتسيان مشروبهما المفضل أمام شاشة التلفاز العريضة، ويتبادلان الأحاديث والضحكات.

انتفضت فجأة، عندما سمعت همسه من خلفها، بصوت دائمًا ما يثير الرجفة بداخلها وهو يقول:

- بقعد هنا لوحدي على فكرة.

أجفلت وهي تلتفت إليه. كانت من المرات المعدودة التي تراه فيها بحلة رسمية سوداء، مما أظهر فيه جانب رجل الأعمال الثري،التي يختفى ببراعة خلف نوعية ملابسه البسيطة التي يعشقها ولا يرتدي غيرها في معظم يومه، والتي تكسبه مظهرًا بريًاخطرًا. توهمت بأن نسمة رقيقة لا تعلم مصدرها قد هبت من أجلها تلفحها، فشعرت ببرودة خفيفة، وجذبت شالها فوق كتفيها باعتناء خاص.

فتابع مردفًا:

- أحيانًا.

عبثت بتلقائية بخصلات متهدلة فوق رقبتها من شعرها المرفوع، محاولة إخفاء دهشتها، ولكن هل مازالت تصاب بالدهشة لذاك التواصل الذي يجعل من السهل قراءة أفكار بعضهما البعض بتلك السهولة؟! هذا ما لمعت به عيناه، ولمحته من نظرة واحدة إليه. وقبل أن تمنحه ردًا خاويًا، فوجئت بـ" نور" تتقدم منهما، حتى وقفت بجوارها وفي عينيها نظرة صارمة موجهةً لكليهما، ولكنها اختارت "حبيبة" لتوجه لها كلماتها القاسية:

- المفروض تسلمي على الناس الأول يا "حبيبة".. ولا إيه؟

احتقن وجهها وهي تنظر حولها بارتباك قائلة:

- أنا كنت مع "خالد" و"هدى" ومش عارفة سابوني وراحوا فين؟

ظهرت ابتسامة ساخرة على شفتيها، معلنة بقوة عن موقفها الهجومي تجاهها وهي تقول:

- انتِ اللي سرحتي ونسيتي نفسك.

خفق قلبها بقوة وهي تقرأ تلميحات صريحة في عيني "نور" وكلماتها الغاضبة واللاذعة.. إلى ماذا تُلمح؟ هل عرفت شيئًا عنا؟ ولكن كيف؟!.. هل هو من صرح لها، أم ماذا؟

أجفلت حينما شعرت بيد "نور" تلمس ظهرها، لتدفعها للسير معها بهدوء بعيدًا عن "حسام"،الذي رمقها بنظرة تشجيعية دافئة، قبل أن تشيح بوجهها عنه، عازمة على أن تكون نظرتها الأخيرة في تلك الليلة، ولكن هل ستُفلح؟

حاولت أن تندمج مع المدعوين راسمة على شفتيها ابتسامة مجاملة، وهي تمنح كلمات مقتضبة على هذا السؤال وتلك المجاملة.

بحثت بعينيها عن "خالد"، فوجدته مندمجًا بالحديث مع "سمر" أخت "هدى" الصغرى، وضحكاته الرنانة تملأ المكان متداخلة مع صوت الموسيقى الهادئة،التي تنبعث من زوايا خفية. أخفت شعورًا بداخلها بالضيق وهي تتساءل لماذا لا ترى تلك الضحكات والكلمات المنمقة في منزلهما.. لماذا يظهر دائما بمظهر لامع جذاب ومرح أمام الناس، أما معها هي فلا يمنحها سوى الفتات؟.

لاحظت انزواء "حسام" قليلًا وهو يتحدث إلى "نشوى" في أحد الأركان، فيما يبدو أنه حديث هام، لما يظهر عليه من تفكير عميق. ترى ماذا يحدث هناك؟

رفع حاجبيه وهو يتأملها بعين خبير وهو يقول ببطء:

- لسه لحد دلوقتي مش قادر أوصل للي انتِ عاوزاه يا "نشوى" !

دللت كأس العصير بين راحتيها وهي تقول بثقة:

- أنا مش فاهمة إنت قلقان من إيه.. أنا كلمتك بصراحة خليك صريح إنت كمان

دس كفيه بجيبي سرواله الأسود الأنيق، وهو مازال حائرًا في العرض الذي تقدمه له بكل صراحة ووضوح، وقد كشفت له عن كيفية معرفتها بما هو عالق بينه وبين أختها، منذ أن استمعت للحديث الثائر الذي دار بينهما على متن السفينة يوم خطبته، وقد استشف من حديثها أن "راغب" علم بأمرهما عن طريقها هي.

ستساعده بإقناع "حبيبة" بطلب الطلاق من زوجها، وبأن "حسام" هو الأجدر بها. ستسعى إلى التقريب بينهما بشتى الطرق، عن طريق نقل أخبارها إليه تفصيليًا، لتفسح له المجال للانفراد بها ومحاولة التأثير عليها..تزين كلماتها بتعبيرات لا حياة فيها عن حبها لأختها الصغرى وحرصها على مصلحتها.العرض شهي من وجهة نظره، ولكن ما أهمية ذلك بالنسبة لـ"نشوى"؟ لم تكن إجابتها مقنعة بما فيه الكفاية عندما قالت:

- مش عاوزة غير رضاك.

نعم منحته ردًا وقحًا، يرضي غروره كرجل على الأقل. ولكنه لم يقنع عقله أبدًا، وبدا متناقضا بشدة مع ما تعرضه من مساعدة. كيف تريده وفي نفس الوقت تُعبِّد له الطريق للوصول لامرأة أخرى؟! لم يناقشها، بل رسم على وجهه لامبالاة، لا تتناسب وما يعتمل بداخله من صراع، وأومأ برأسه بموافقة ضمنية، دون أن يترجمها إلى كلمات، لعله يستطيع أن يتنصل بسهولة من هذا الاتفاق المزري.

لم تستطع أن تتخلص من نظراته المتسلطة المحاصرة التي لم تفارقها طوال مدة الحفل، وكلماته التي لا يفهمها غيرها، والتي تجد طريقًا ممهدًا إلى قلبها رغمًا عنها، إلا بادعائها الكاذب للمرض والإرهاق، طالبة من "خالد" عودتها إلى المنزل لترتاح.

عرجا في البداية على منزل عائلتها، ليصطحبا ابنتهما "حنين" التي تركاها في رعاية خالتها الصغرى "سلمى".دخلت منزلها حاملة طفلتها بين يديها بضيق شديد، بعد أن تركها "خالد" بعد أن أوصلها، متعللًا بأمر هام يخص شريكه في العمل، لابد وأن يتدارسه معه الآن، ولن يستطيع تأجيله للصباح.

نزعت الشال من فوق كتفيها بحدة، بعد أن وضعت صغيرتها في مهدها.ألقت جسدها بصبيانية فوق فراشها، متأففة من وحدتها التي تزداد كل يوم، مع تلك الفوهة التي تتسع بينهما؛ كل منهما في جزيرة منعزلة عن الآخر، رغم وجودهما تحت سقف واحد. لا تشعر به ولا يوليها اهتمامه، لا تجد شيئا يجمعهما، ولا يكلف نفسه عناء البذل من أجلها، بينما هناك مشاعر آخرى تتربص بها، وتضغط عليها بقسوة، وتحاصرها بصمت.. صمت يدوي كطبول تقرع صبرها فتحطمه بلا رحمة.

ظلت تنتظره طويلًا، بعد أن بدلت ملابسها محدقة تجاه وسادته الباردة بجانبها..كل شيء بارد في تلك الشقة الصماء التي تجمعهما بلا روح، بلا حياة، بلا حب، أو حتى تفهم.وقبل انبثاق الفجر بقليل، وبلا مقدمات، سقطت في نوم عميق. وليتها ما فعلت!.

رأت نفسها تخطو بخطوات أقرب إلى التحليق تجاه منزله، وكأن شيئًا يجذب روحها لاتجاه بعينه. وبمجرد دخولها، توجهت إلى مدفئته الكلاسيكية؛ ولكنها هذه المرة كانت مشتعلة، حرارتها تلهب الأجواء حولها. تلمست الأريكة الوثيرة المواجهة لها، فشعرت بدفء رائع يسري بين أوصالها الباردة، وسمعت صوته

آتيًا من قاع بئر بعيد، مرحبًا بحرارة قصوى: "لماذا تأخرتِ؟أنتظركِ منذ ساعة على الأقل".

التفتت إليه، لتراه يتقدم نحوها بابتسامةوهو يتفحصها متفقدًا، مرتديًا تلك الملابس التي دفنت وجهها بينها في خزانته الخشبية، في بيت والدته. حركت شفتيها لتتحدث، ولكن جفاف حلقها منعها؛ إلا أنه قرأ السؤال في عينيها " كيف عرفت"؟لم تستطع أن ترفض راحته المبسوطة أمامها، وقد قطع المسافة بينهما بلمح البصر، وهو يجيب ضاغطًا أصابعها بداخل قبضته برقة "أنا من استدعيتكِ".

انتفضت مذعورة لاهثة الأنفاس، وقد كتمت شهقة كانت كفيلة بإيقاظ النائم بجوارها.

أخذ صدرها يعلو ويهبط، تكاد تتنفس بصعوبة شديدة، وكأن روحها قد رُدت إليها على حين غرة، متناغما مع اهتزاز كتفيها ببكاء مكتوم وشهقات خفية، وهي تضع إحدى يديها فوق شفتيها والأخرى على صدرها.
هدأت قليلًا وهي تنظر حولها، لتتأكد بأنها في منزلها، وقد عاد زوجها ونام بجوارها بملابسه كما هو. لملمت خصلات شعرها الملتصقة بوجنتيها وجبينها، على إثر التعرق الشديد. نهضت من فراشها وخرجت إلى غرفة المعيشة، بقدمين مرتعشتين وجسد منهك وذهن مشوش. وعندما تأكدت من خلو الغرفة إلا منها، لفت كتفيها بذراعيها، محتمية من شيء مجهول يهز أركانها، مبعثرًا صلابتها كذرات الرمال. وهنا فقط، تركت العنان لنفسها، وأجهشت بالبكاء.

****

فى اليوم التالي،استيقظ "خالد" متعبًا للغاية، فلم يستطع مغادرة المنزل، وظل قابعًا به طوال الوقت أمام شاشة التلفاز. وبرغم صمته واهتمامه الموزع بين شاشة العرض وهاتفه المحمول، إلا أنها شعرت ببعض السعادة وهي تجلس بجواره للمرة الأولى في منتصف النهار، وتحمل طفلتها وتهدهدها بهدوء مرح، بعد أن صرفت الخادمة التي ترسلها عمته يوميًا. عندما جلست بجواره، كان لا يزال يتحدث في الهاتف، فرمقها بنظرة سريعة، ثم أخذ هاتفه وخرج إلى الشرفة، وهو يتحدث بكلمات خاطفة مهمة. أخذت الطفلة وخرجت خلفه.. وضعت الطفلة على الأرجوحة الصغيرة في ركن من الشرفة، فأنهى حديثه سريعًا باقتضاب واستدار إليها بغضب قائلًا:

- انتِ مش هتبطلي بقى تتجسسي عليا؟

لم تستطع أن تدعي براءة موقفها مائة بالمائة، فجزء منها كان يريد أن يعرف إلى من يتحدث وماذا يقول. قالت بارتباك:

- إيه باتجسس دي. أنا بامرجح البنت.

زفر بضيق وهو يهمهم بكلمات ساخطة أحرجتها وهي تنظر إليه، وقد استند إلى سور الشرفة. يكره فيها تتبعها لحركاته وتساؤلاتها التي لا تنتهي، وكأنه يقف أمام محقق بارع في عمله، وكأنها لا عمل لها سواه والدنيا تدور حوله هو فقط. وقبل أن تحمل الطفلة وتخرج تاركة إياه وحيدًا حانقًا،اعتدل فجأة وهو يقول بتفكه:

- "حسام" وصل.

شعرت أن قلبها يدق بصخب وعنف، وقطبت حاجبيها قائلةً برفض واضح:

- إزاى ييجي كده من غير معاد؟

أجابها وهو يمر بجانبها متجهًا إلى باب الشقة بتبجح:

- البيت بيته ييجي وقت ما يحب.

استقبله بحفاوة كبيرة، وهو يرحب به للمرة الأولى ببيته المتواضع من وجهة نظره. تجمدت مكانها عندما زحف عطره إلى أنفها ينبئهاباقترابه، ويدفعها للتحرك سريعًا لعلها تستطيع الوصول إلى غرفة نومها لتختبئ، ولكنها توقفت محتضنة طفلتها إلى صدرها، محتمية خلفها، عندما شاهدته مقبلًا عليها بابتسامته المعتادة. إلا أنها هذه المرة كانت لامعة ومشعة عن كل مرة سابقة.. توردت وجنتاها عندما صافحها، وضغط أصابعها بنفس الطريقة وهو يمرر عينيه فوق صفحة وجهها بهدوء مستفز. مصافحته لم تتعد ثوان، فكيف لمصافحة تبدو بريئة للناظرين ولم تتعد الثوان أن تترك هذا الأثر في النفوس؟!

أخذ "حنين" من بين يديها، حريصًا على أن يلامسها، وجلس بصبيانية ملقيًا جسده فوق الأريكة الوثيرة، وهو يلهو معها و"خالد" في إثره، وانسحبت هي بهدوء إلى حجرة نومها وضحكاته وهو يداعب ابنتها تزلزلها. وقبل أن توصد الباب خلفها، لحق بها "خالد" متذمرًا:

- سايبانا ورايحة فين؟

التفتت برأسها مندهشة وعلى شفتيها ابتسامة ساخرة:

- هاقعد معاكم أعمل أيه؟!.. اسأله عاوز يشرب إيه وقل لي؟

أطلت نظرة غاضبة من عينيه وهو يوصد الباب بهدوء ما يسبق العاصفة قائلًا:

- عاوزاه يفتكر إنه مش مترحب بيه في بيتي؟ ده ابن عمتي وصاحبي وأخويا.. يعني بيتي هو بيته.. عارفة كده ولا لاء؟

كان لكلماته وقع مختلف على أذنيها، جعلها تشعر بالغضب وتلوح بيدها هاتفة:

- أيوه مش مرحبة بيه.. يفهم اللي يفهمه.. وبعدين ابن عمتك إنت مش أنا.. يعني ماتجبرنيش أقعد معاه.

جذبها من ذراعيها بقوة آلمتها، وهو يهزها بعنف ضاغطًا أسنانه وهو يقول:

- بقى يقف معاكِ في المستشفى يومين، ويعمل لك حفلة مخصوص، وفي الآخر تقولي كده؟.. طب إيه رأيك بقى هتقعدي معاه وترحبي بيه وتردي على كل كلمة بيقولها بطريقة تليق بيه، لحد ما أنا اللي أقولك قومي.

خلصت ذراعيها من بين أصابعه، ودلكتهما متألمة.مقطبة حاجبيها قائلة بصوت يشوبه البكاء:

- خلاص يا "خالد" حاضر.

أشار إليها آمرًا قبل أن ينصرف:

- أنا هاقدمله شيكولاته وانتِ اعملي عصير وهاتيه ووشك ده تفرديه شوية.

راقبت انصرافه بعينين دامعتين، مجاهدة صرخة تريد أن تخرج من أعماق أعماقها بما تحمله بصدرها، ولا يهم ماذا سيحدث بعدها. إلا أنها تماسكت سريعًا، ووقفت أمام باب الحجرة تحاول نحت البرود بين ملامحها، وإزالة آثار عدوان "خالد" المفاجئ عليها، ثم تنفست بقوة وعمق ولحقت به.
تخيرت مقعد بعيدًا نسبيًا عنه، وجلست وهي تشعر بنظرات "خالد" المحذرة لها، قبل أن تلتفت إلى "حسام" الذي كان من الواضح أن "حنين" أخذته من بين الجميع لها وحدها، فلا يكاد يشعر بهما وهو يداعبها وهي تناغيه برقة، ويقبلها قبلات كثيرة حول وجهها الصغير وفوق أناملها الدقيقة.قالت بنبرة حاولت أن تجعلها عادية، إلاأنها خرجت رغمًا عنها مرتبكة:

- "هدى" أخبارها أيه؟

أجاب وهو مازال منشغلًا بالصغيرة:

- مافيش جديد.

اعتدل "خالد" باهتمام، وقبل أن يتحدث علا رنين هاتفه بنغمة مميزة. تناوله وهو ينهض معتذرًا، متجهًا إلى الشرفة مرة أخرى،فارتبكت عندما أصبحا وحيدين في الغرفة ونهضت لتغادر. ولكنه وقف أمامها مثبتًا عينيه بعينيها وقال بهمس:

- ماكنتش أعرف إنك حبيتي ركن الدفاية قوي كده؟

انسحب اللون من وجهها فتركه شاحبًا، وهو يتابع بابتسامة فهمت ما خلفها بدقة لا تقبل الشك:

- ينفع كده؟ تتأخري عليا ساعة كاملة؟

شعرت أن الجدران تدور من حولها وهي تقول بحروف مبعثرة:

- قصدك إيه؟

خفق قلبها بقوة، وكادت أن يغشى عليها وهو يومئ برأسه بثقة كبيرة مؤكدًا بصوت عميق:

- انتِ عارفه أنا قصدي إيه.. أنا اللي ناديتك.

هل تسقط مفارقة الحياة في الحال؟ هل تصفعه؟ هل تركض دون اتجاه وبلا هدف؟! ظلت محدقة به وهو واقف أمامها بهدوء شديد متحديًا، لحظات لا تقطعها سوى مناغاة "حنين"، وصوت "خالد" البعيد غير المفهوم، همهمت بهذيان مشوشة الذهن، وهي تسمع صوت "خالد" يقترب عائدًا وهو يهتف موجهًا حديثه لـ"حسام":

إصدارات أخرى للدار

الروحاني: أحمد الملواني

مش من هنا: نوره واصف

كيغار: منى سلامة

رحلة لـ 100 عبيط: عمر عباس

ربيع الكتب
book-spring.blogspot.com
facebook.com/spring.book.eg

متوفر في فروع مكتبات

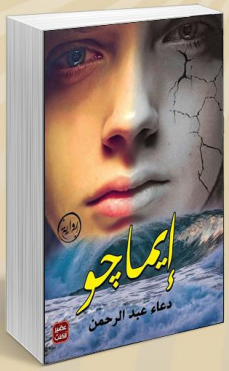

القاهرة : مكتبة فكرة .. سيتي ستاز مدينه نصر ، مكتبة عمر بوك ستور .. 15 ش طلعت حرب وسط البلد ، مكتبة تنمية .. 19 شارع هدى شعراوى ، مكتبة القمرى .. بالمعادى .. شارع 9 ، أجى بوك ستور .. 29 شارع مصطفى كامل .. موازى لشارع 9 المعادى ، مكتبة الرسم بالكلمات كايرو مول .. الهرم

اسكندرية : مكتبة فكرة .. مول سان ستيفانو .. الدور الأول ، مكتبة روايات الشباب 67 ش مسلم بن الوليد - الموازي لشارع مصطفي كامل .. ترام صفر

الزقازيق: مكتبة الميدان .. بشارع المحافظة

المحله الكبرى : مكتبة ادراك .. شارع الشهيد محمد حسني

المنوفية : مكتبه انتيكا .. شبين الكوم , ش الجلاء

أسيوط : مكتبة ومضة .نادى الشبان المسلمين بالوليدية بجوار نادى المهندسين

السويس : المعدية .. 13 شارع الصفا , فيلا المروة بالملاحة بجوار مدرسة النبوية موسى

الاسماعيلية : مكتبة كتابيكو .. السلطان حسين - ثاني مر أمام فودافون

دمياط : مكتبة كتابيكو , مكتبة ألفا باتيكا , مكتبة بيانكو

المنصورة : مكتبة الشوربي , أمام بوابة تربية بشارع جهان

البحيرة : مكتبة كريم بوك ستور .. دمنهور ,خلف مطعم كنتاكى

طنطا : مكتبة الصحافة , ميدان المحطة .. بوابة

الاقصر : مكتبة البيان .. شارع زمزم , متفرع من شارع المدينة المنورة1

سوهاج : مكتبة البطش .. موجودة في منطقة المحليات شارع الكاشف في شارع الجهاد

فروع مكتبة ألف

القاهرة

المبرغلي: 132 شارع المبرغلي

المعادي: 84 شارع 9 المعادي - سيتي سنتر (كارفور) المعادي، بجانب متجر H&M

رمسيس : داخل محطة القطار برمسيس

مدينة نصر : سيتي سنتر مدينة نصر، الدور الثالث بجانب السينما

الرحاب : مول 2 الرحاب متجر رقم 96

القاهرة الجديدة : كايروفيستيفال سيتي مول، الدور الثالث

السادس من اكتوبر : مول العرب، متجر رقم (G#090b)
بجانب بوابة 4 مول العرب بوابة رقم 20 بجانب متجر موباكو

الهرم : 138 شارع العريش، متفرع من شارع الهرم .. مول العاصمة

فيرست مول : 35 شارع مراد الجيزة بداخل فيرست مول الدور الثاني، متجر رقم 222

المهندسين : 33 جزيرة العرب المهندسين

داندي مول : الكيلو 28 طريق مصر الإسكندرية الصحراوي
بداخل داندي مول بين محلي جاك اند جونس و بيسكن روبنز

ديستريكت شيراتون : ديستريكت شيراتون هليو بوليس، طريق الأوتوستراد
نادي وادي دجلة

كيدزانيا : الطريق الدائري، شارع طه حسين من شارع جنوب أكاديمية الشرطة
المنطقة الخامسة

*****

الإسكندرية

كفر عبده : 30 شارع عبد القادر رجب، رشدي، بجانب روستري رشدي

العروبة : مول العروبة، برج العرب، بجانب بوابة كارفور

سيتي سنتر الإسكندرية : متجر رقم LP14 أمام متجر مزايا وكوستا كافيه
أمام ستاربكس كافيه

سيدي جابر : مول محطة قطار سيدي جابر الدور الأول بجوار شباك التذاكر الوحدة F9

نادي سيورتنج : المدخل الأوسط للجولف .. أمام الكلوب هاوس

*****

شرم الشيخ

مركاتو : مول مركاتو، هضبة أم السيد
بجوار ستاربكس وماكدونالدز ، متجر رقم 9 مبنى B12 منطقة B

******

أسيوط

الجمهورية : 58 شارع الجمهورية، بجانب متجر Computer Shop

******

الساحل الشمالي

ماريا : خلال فترة الأجازة الصيفية .. ماريا 4 بجانب مطعم بيتزا هت وكوستا كافيه

مراسي: خلال فترة الأجازة الصيفية .. قرية مراسي السياحية، سيدي عبد الرحمن
نادي الشاطيء

****

الإسماعيلية

فرع الممر : 7 شارع الغربية، ميدان الممر .. بجانب سوبر ماركت العمدة

فروع مكتبة الشروق

القاهرة

مدينة نصر: سيتي ستارز مول الدور الأول مدخل 7

وسط البلد: 1 ميدان طلعت حرب

الزمالك: 17 شارع حسن صبري

الشيخ زايد: أمريكانا بلازا - 6 أكتوبر

طريق القاهرة الاسكندرية الصحراوي: داندي مول – الكيلو 28

التجمع الخامس: فيستفال سيتي